المقدمة
في المسألة الشرقية

منذ نشأتها الأولى الى الربع الثاني من القرن الثامن عشر

تأليف المرحوم

روحي بك الخالدي

طبع بنفقة السيد محمود ثريا الخالدي

مطبعة مدرسة الايتام الاسلاميه بالقدس

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-2102/fragment/page=00000001

Universitäts- und Landesbibliothek
Halle
Zweigbibl.
Ha 1
Vorderer Orient

03 SA 7268

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-2102/fragment/page=00000002

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-2102/fragment/page=00000003

رومي بك الخالدي

الوكيل الاول لمجلس المبعوثان العثماني ونائب القدس الشريف
فيه « ومؤلف كتاب تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب »
الخ . . .

نشأة المترجم الاولى (١)

ولد روحي بك في محلة السلسلة من القدس يوم الجمعة في ٥ صفر سنة ١٢٨١هـ (١٨٦٣) وهو محمد روحي بن يسن بن محمد علي الخالدي؛ واسرة الخالدي من الاسر العريقة في النسب يتصل نسبها بخالد بن الوليد الفاتح الاسلامي المشهور . فنشأ في بيت منه كبار رجال القدس والقضاة والعلماء ومنهم من كان شيخاً للاسلام ويوسف ضيا باشا الذي انتخب لمجلس النواب العثماني الأول وكان من خيرة رجاله واكثرهم غيرة واباء وعلماً . فاختار المترجم اولاً ان يكون من طلاب الآداب العربية بالدخول في زمرة طلاب العلوم الدينية فيشغل فراغاً في اسرته التي لم تخل من العلماء ، وكان اهالي القدس انتخبوا والده لينوب عنهم في المجلس العمومي في بيروت على زمن راشد باشا والي سوريا المشهور . ثم عين لنيابة طرابلس الشام وهو ينتقل بين هذه الجهات بعائلته وفي جملتها ولده روحي .

ولما عزل راشد باشا تزعزع مركز اكثر انصاره المنتسبين الى حزب الاصلاح وعاد يسن افندي الخالدي والد صاحب الترجمة الى القدس موطنه فأرسل ابنه الى الكتاتيب ومدارس الحكومة الابتدائية ، ولما تولى مدحت باشا ولاية سوريا اخذ يجمع من يثق باخلاصهم ونزاهتهم ويعيدهم الى مراكزهم الأصلية وأرسل يسن افندي الخالدي قاضياً شرعياً الى مدينة نابلس فأدخل هذا ابنه الى

---

(١) رأينا ان نثبت هذه الترجمة هنا ، وهي منقولة عن العدد الثاني من المجلد الاول من مجلة المنادي التي كانت تصدر بالقدس الشريف .

المكتب الرشدي . ثم نقل الى طرابلس الشام فارسله الى المدرسة الوطنية التي كان أنشأها هناك المرحوم الشيخ حسين الجسر وأدخل اليها وسائل التعليم الحديثة والفنون العصرية .

سفره الى الاستانة وسيرته بعد ذلك

وفي اثناء ذلك سافر عم صاحب الترجمة عبدالرحمن نافذ افندي الخالدي الى الاستانة وصحب معه ابن اخيه . وكان شيخ الاسلام حينئذٍ عرياني زاده احمد اسعد افندي فقابله عبدالرحمن نافذ المذكور فاراد أن يزيد في رغبة ابن اخيه روحي بك في طلب العلم فانعم عليه برتبة « رؤوس بروسه » وذلك في ١٥ ربيع الاول (سنة ١٢٩٧) وهي اول درجة في سلم المراتب العلمية وكسوتها جبة زرقاء مطرزة بالقصب عند القبة وعمامة عليها شريط مقصب . ويلقب صاحبها (بقدوة العلماء المحققين) ويعد مدرساً في مدرسة رابعة الخير في بروسه . ولم يكن المترجم حينئذ يبلغ السادسة عشرة وهو تلميذ وليس مدرساً . وعند عودته الى القدس اخذ يحضر دروس المسجد الاقصى ويتلقى علوم الفقه والتوحيد والحديث والنحو والصرف والمنطق والبيان والبديع فيها ويتردد على مدرسة الاليانس ومدرسة الرهبان البيض (الصلاحية) ليتقن اللغة الفرنساوية .

قال عن نفسه انه ذهب في احد المواسم مع ابيه واعمامه ونخبة من اعيان القدس الى قرية اريحا ومعهم آلة الطرب فضربت لهم الخيام على عين السلطان وكانت معيشتهم على الطرز الشرقي وحولهم اهل القرية على البداوة . فجاءت جماعة كبيرة من سياح الفرنج ونزلت على تلك العين ايضاً فشاهد انتظامهم وحركاتهم وسكناتهم واختلاط نسائهم برجالهم وقراءتهم في كتاب الدليل الذي في ايديهم . ورأى احدهم وقد خطب على المائدة شارحاً تاريخ الارض المقدسة وما كانت عليه من العمران في العهود السالفة فادرك الفرق بين المعيشتين الشرقية

والغربية . وان الأولى مؤسسة على الجهل واستبداد الكبير بالصغير واطاعة الآمر على العمياء والاعتماد في تحصيل المطالب على القوة ونفوذ العائلة وذوي العصبية ، وان الثانية مؤسسة على العلم والحرية والاعتماد على النفس والاستقلال في العمل والادارة وغير ذلك من المميزات .

ثم دخل المدرسة السلطانية التي كان يديرها الشيخ حسين الجسر في بيروت وظل فيها الى حين انحلالها فعاد الى القدس وحضر حلقات الدرس في المسجد الاقصى وانتظم في سلك خدام الحكومة في دوائر العدلية . ثم خطرله ان يذهب الى الاستانة ويدخل في احدى مدارسها العالية وجاهد في سبيل امنيته هذه لان والديه كانا لا يرضيان بها . وحاول أن يعصى ارادتهما فاخذ يوماً تذكرة السفر ووصل الى ظهر الباخرة في يافا فاكره على الرجوع ثم عين باشكاتباً لمحكمة غزة فلم يذهب الى مكان وظيفته بل سافر الى الاستانة ودخل المكتب الملكي فيها وبقي فيه ست سنوات اخذ في نهايتها الشهادة العالية وعاد الى القدس فعين في جملة المعلمين في المكتب الاعدادي ولكنه رأى من نفسه انه أجدر بان يتولى وظيفة اعلى من هذه فرجع الى الاستانة يطلب قائم مقامية لاحد الاقضية وكاد يتم تعيينه عند مالم يبق في قوس صبره منزع فهجر البلاد العثمانية الى فرنسا فوصل باريس وهو لا يعرف احداً فيها ودخل مدرسة العلوم السياسية فيها فأتم دروسها في ثلاث سنوات ثم انتقل منها الى دار الفنون العالية (السوربون) وهي من كبريات المدارس الفرنساوية يتخرج فيها مشاهير رجال فرنسا وارباب الدهاء والعلم وتعلم فيها فلسفة العلوم الاسلامية والاداب الشرقية . وكان يتردد على مجالس كبار المستشرقين فدعوه الى القاء المحاضرات العربية في انديتهم . وهو يعد أول من احدث المحاضرات العربية العالية في باريس . لانهم كانوا من قبل يقتصرون في تعليم العلوم العربية على الطريقة التي لا تزال متبعة حتى اليوم في المدارس الشرقية من التزام الكتاب .

مباحثه العلمية والسياسية

وعين روحي بك بعد مدرساً في جمعية نشر اللغات الأجنبية في باريس وهي احدى الأربعين جمعية المؤسسة في دار الشركات العلمية وكانت اكثر الجرائد الفرنساوية والعربية والتركية تنشر خلاصة مباحثه وتحقيقاته . ودخل عضواً في مؤتمر المستشرقين المنعقد في باريس (سنة ١٨٩٧ م) وعرض فيه احصائيات العالم الاسلامي الدقيقة وعاد بعد سنة الى الاستانة فصدرت الارادة السنية (في ٨ جمادي الاخرى سنه ١٣١٦) بتعيينه قنصلاً جنرالاً في مدينة بوردو فرضيت به حكومة الجمهورية الفرنساوية ووضعت ثقتها فيه وكانت رفضت الكثيرين الذين عينوا قبله لتلك القنصلية ، وانتخب رئيساً لجمعية القناصل في تلك المدينة وعددهم (٤٦) فكان ينوب عنهم في الاحتفالات التي يتعذر وجودهم فيها جميعاً ويستقبل رئيس الجمهورية وكبار الوزراء والعلماء عند مرورهم ببوردو .

ولما اقيم المعرض البحري العام في بوردو (سنة ١٩٠٧) لانقضاء مئة سنة لايجاد البواخر كان روحي بك من المشاركين في اقامته فأهدته بلدية بوردو وادارة المعهد تذكاراً جميلاً ومنحته الحكومة الفرنساوية نيشان نخلة المعارف الذهبية ووسام اللجيون دونور . وكان في اثناء ذلك ينشر المقالات الوافية في بعض المجلات العلمية في آثار الشرق وعادات اهله ويغفل امضاءه منها او يذكر فيها اسم «المقدسي» ولما اعلن الدستور في البلاد العثمانية رجع الى مسقط رأسه والدار التي قضى فيها ايام صباه وشب وانتخب نائباً عن اهل القدس في مجلس النواب العثماني . ولما اعيدت الانتخابات عادوا فانتخبوه المرة الثانية والثالثة وانتخب في مجلس النواب نائباً للرئيس .

ثم سافر سفرته الأخيرة الى الاستانة فتوفي فيها في ٦ اغستوس سنة ١٩١٣ على اثر حمى تيفوئيدية اصابته ولم تمهله الا اربعة ايام .

آثاره ومؤلفاته

وله تآليف كلها بنات البحث والتدقيق . منها كتاب «علم الأدب عند الافرنج والعرب» وهو كتاب لم يؤلف مثله عند العرب حتى الآن . قارن فيه بين الآداب العربية والافرنجية وذكر ما اقتبسه الافرنج من الآداب العربية وما لفكتور هوكو من الأثر وغير ذلك . وقد نشر هذا الكتاب اولاً في مجلة الهلال بدون توقيع عند ما كان صاحبه قنصلاً جنرالاً في بوردو ثم اكتفى بأن يذكر فيه اسم المقدسي وطبعته تلك المجلة على نفقتها بذلك التوقيع وفي السنة الماضية اعادت طبعه وذكرت فيه اسم مؤلفه الصريح ؛ ومنها كتاب « العالم الاسلامي» نشر قسم كبير منه في جريدة المؤيد وطرابلس الشام ومجلة الهلال واستخلصت منه جريدة طرابلس رسالة صغيرة طبعتها على حدة ؛ ومنها رسالة في علم الكيمياء عند العرب وترجمة أحد كبار الكيماويين الفرنساويين . ومنها كتاب في رحلته الى جزيرة الاندلس وصف فيه آثار تلك الجزيرة العربية النادرة وهو لايزال مخطوطاً . ومنها رسالة « الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة » الفها في الشهور الاولى من انتشار الدستور ونشرتها مجلة الهلال والمنار الاسلامية وطبعتها هذه على نفقتها وكتاب تاريخ الشرق ومراوه نشر قسم منه في مجلة الهلال وكتاب علم الألسنة او (مقابلة اللغات) وهو لايزال مخطوطاً . ومن الكتب التي عاجله الأجل قبل توفيتها كتاب في تاريخ الامة الاسرائيلية وعلاقتها بالعرب وغيرهم من الامم . وكتاب في تراجم العائلة الخالدية ؛ وغير ذلك من الرسائل والمقالات .

قول مراسل باريسي

في

اول محاضرة عربية القيت في باريس

كتب احد طلاب العلوم السياسية من باريس هذا الوصف الجميل للحفلة التي اقامتها «جمعية نشر اللغات الاجنبية في فرنسا» مساء يوم الثلاثاء الواقع في ٦ نيسان سنة ١٨٩٧ والقيت فيها هذه المحاضرة، وقد نشر هذا الوصف في الجرائد والمجلات العربية في ذلك الوقت، ورأينا تتميماً للفائده ان نثبته هنا قال:

في مدينة باريس على الشاطئ الأيسر من نهر السين دار رحبة شاهقة تسمى دار الجمعيات العلمية او مجامع العلماء تشتمل على عدة دوائر وغرف مختلفة في السعة والترتيب. منها ماهو للتدريس والخطابة والمباحثات والمطالعات واجراء التجارب في الكيمياء والطب والطبيعيات ومنها ماهو للتمثيل والرقص والملاكمة (بوكس) والمبارزة والولائم والاحتفالات.

وفي هذه الدار عدا الجمعيات الموقتة اربعون جمعية علمية دائمة تعقد اجتماعاتها اياماً معينة في الاسبوع او الشهر. ولكل منها مطالب تسعى في ترويجها ومقاصد تروم الوصول اليها.

فمن جملة تلك الجمعيات الدائمة (جمعية نشر اللغات الأجنبية في فرنسا) وغايتها تسهيل انتشار اللغات الأجنبية بين الفرنساويين لترويج تجارتهم وتسهيل

اخدهم وعطائهم مع بقية الامم . فهي تعلم الانكليزية والألمانية والروسية والطليانية والاسبانية والعربية وتلقي في كل لسان من هذه الألسنة خطباً رنانة ودروساً مهمة وتمثل روايات تاريخية وهزليات حكمية وتنشد اشعار كل امة من تلك الامم وتقص اخبارها لتمكن الطالب من الوقوف على جميع مزايا تلك اللغة التي يتعلمها فيدرك اصطلاحاتها الخاصة والعامة ويطلع على آدابها ومعانيها وشواردها ويكون كالمقيم بين المتكلمين بها بدون تكلف مشاق السفر الى بلادهم .

ولعهد قريب كان درس اللغة العربية قاصراً على تعليم الحروف الهجائية وبعض الكلمات والقواعد النحوية ولم يقرر بهذه اللغة درس ولا جرى بها بحث لعدم وجود مدرس وخطيب ولا مستمع ومجيب. ففي السنة الماضية كلفت الجمعية السيد محمد روحي الخالدي المقدسي لالقاء محاضرة (قونفرانس) (١) باللغة العربية فأجاب طلبها وبحث في ناديها عن (الاسلام في هذه الايام) بحثاً طويلاً مدققاً تناولت شيئاً منه بعض الجرائد العربية في مصر وسوريا والجرائد الأعجمية في باريس وغيرها . فلما رأت الجمعية رواج مبحثه واقبال الناس عليه التمست منه العود الى ذلك في هذه السنة ايضاً وأعدت له في تلك الدار غرفة اعظم من غرفة العام الماضي .

---

(١) القونفرانس باصطلاح القوم عبارة عن اجتماع اشخاص للبحث في مسئلة يكون لهم المام بها ويكون الباحث فيها قد استحضر على جميع مايتعلق بشرحها وتوضيحها . وهو اما سياسي كاجتماعات سفراء الدول ومرخصيها للبحث في المسائل السياسية واما علمي كاجتماع كل فريق من فرق العلم لتدقيق المسئلة التي تعود لفريقهم وكشف غوامضها فاذا التأم الجمع رأس احدهم الاجتماع وفتح الجلسة بما يناسبها من الكلام ثم اعطي القول للباحث فيشرح المسئلة ويوضحها قدر استطاعته فان أحسن قوبل بالاصغاء ثم بالتصفيق والاستحسان وان اساء قطع عليه الكلام بالتصفير والصراخ وان بدا لأحدهم كلام استأذن اولاً من الرئيس فان اذن له تكلم .

وفي الساعة الثامنة من مساء يوم الثلاثاء الواقع في ٦ نيسان سنة ١٨٩٧ توارد المدعوون على اختلاف اجناسهم ولغاتهم ولباسهم الى حجرة القونفرانس فاستقبلهم على الباب كاتم اسرار الجمعية الموسيو روبر ورحب بهم واجلسهم في مقاعدهم . فكنت ترى من جهة العرب بين مصريين وسوريين وتونسيين واهل الجزائر ومراكش والصحراء وجزائر قومور بألبستهم الوطنية وبرانسهم وجبهم وعمائمهم وبقية المسلمين من ترك وارنؤود وشركس وفرنساويين واسويجيين لاعتبارهم اللغة العربية آلة لفهم الكتاب الذي يأخذون عنه احكام دينهم ويستخرجون منه قوانين دنياهم وترى من جهة اخرى المستشرقين على اختلاف طبقاتهم واجناسهم مابين فرنساوي والماني وانكليزي وروسي واميركي ومترجمي الوزارات وطلبة مدرسة الالسنة الشرقية ومدرسة العلوم الشرقية ومدرسة احبار اليهود ومدرسة المستعمرات ومدرسة العلوم العاليه وغير ذلك من المدارس والجمعيات التي تدرس فيها اللغة العربية .

فكانت تلك الحجرة المختصه بالمستمعين اشبه بمعرض لنوع الانسان شهر فيه واحد فاكثر من كل قوم من اقوام الشرق والغرب ولم يخل هذا المجتمع ايضاً من النوع اللطيف بل حضره كثير من السيدات المقبلات على تحصيل اللغة العربية والمعارف الاسلامية (١) . وكان عدد الجميع ينوف على مئتي نفر عدا المتفرجين الواقفين على الاقدام .

وبعد أن التأم الجمع دخل العلامة هارتويغ ديرنبورغ المدير الثاني في مدرسة العلوم العالية وجلس على كرسي الرئاسة الموضوع امام مائدة مستطيلة وجلس على يمينه صاحب القونفرانس محمد روحي الخالدي وفي طرف المائدة كاتبا الضبط (ستنوغراف) . وفي اثناء ذلك دخل مبعوث ايالة دوب لدى مجلس نواب الجمهورية الفرنساوية وهو سيدي الدكتور (غرينيه) المسلم الفرنساوي الذي اصبح

(١) اسلمت احدى السيدات الفرنساويات اللواتي يدرسن الطب.

بعمامته وبرنسه اشهر من نار على علم في باريس لابل في سائر الامصار ودخل معه كاتبه وجماعة من الجزائر وجلس على شمال الرئيس . ثم حضر امير جزائر قومور الواقعة بين جزيرة مدغسكر وساحل افريقية الشرقي والتابعة لفرنسا واسمه البرنس يوسف بن علي وهو في الخامسة والعشرين من عمره اسمر اللون عربي اللهجة متردي بكسوة عربية جبة وعمامة وقفتان وفي وسطه خنجر مفضض وهو حليم انيس تلوح عليه علائم الأمارة والسؤدد ويحسن تكلم الفرنساوية وحضر معه بعض اهالي الجزيرة وجلسوا على يمين الخطيب .

فقال الرئيس : فتحت الجلسة . وفاه بخطاب فرنساوي انيق ذكر فيه الاحتفال الذي اعده في الليلة الماضية جماعة المسلمين اكراما لأخيهم في الله سيدي الدكتور غرينيه وأن هذا القونفرانس متمم للأحتفال المتقدم لمشاهدة المسلمين فيه من جزائر قومور الى بونتارليه — وهي الايالة التي انتخبت المبعوث المسلم المشار اليه — ثم تكلم عن اساس المسئلة الشرقية وفصل الكلام على الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر ثم قدم الخطيب للهيئة بانه من اولاد خالد بن الوليد فاتح سوريا في خلافة ابي بكر واثنى عليه وعلى الفكر الذي ابداه في خاتمه بحثه ونتيجته (ني فناتيزم ني قروازاد) أي لاتعصب اسلامي ولاحربا صليبية وقال لاعجب ان ابدى الخطيب لنا مثل هذا الفكر في ايام اسمعتنا الجرائد فيها اهوالا فانه من عائلة متيمة في القدس منذ قرون واجيال . وقد اشتهر اباؤه واجداده مع بلوغ بعضهم اعلى مراتب الدين الاسلامي كمشيخة الاسلام وكقضاء العسكر في تركيا من القديم بالمحافظة على المسيحيين وسائر الكتابيين سيما اثناء المعامع والحروب الاهلية والسعي في تأييد الامن والصلح بين طوائف النصارى . وعرفت من هذه العائلة يوسف ضياء الدين باشا الذي ترجمته في هذه الأيام الجرائد الباريزيه وقد خرج المشار اليه في حياته مرتين وهو يسعى في كنائس القدس ويبت لحم بالصلح بين الطوائف

للمسيحية لاشتداد الرقابة بينها على الأماكن المقدسة . فهذا يدلكم على أنه في المسلمين عائلات خالية عن التعصب محبة للانسانية عائشة مع جيرانها من ذوي الأديان الاخر بالصلح والمحبة والطمأنينة. ثم قال : القول لسيدي روحي الخالدي فاجاب :

ايها السيدات والسادة

اني اشاهد بكل سرور رواج لغة القرآن بينكم وتزايد اقبالكم عليها نساءً ورجالاً في كل سنة عما قبلها . ولاغرو في ذلك فانها لغة اثني عشر مليونا تابعاً لجمهوريتكم الفرنساوية اوتحت حمايتها . وكلما تعمقتم في درسها انكشفت لكم من اسرار الشرق كنوز مخفية من الحقائق وازالت عنكم ماتتوهمونه عن دين الشرق واخلاقه الاجتماعية .

هو ذا سيدي غرينيه الذي آنسنا بتشريفه في هذه الليلة بعد أن درس الطب وما يتعلق به من العلوم الطبيعية والرياضية طالع القرآن واقتنع بصحة ما فيه فآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر ولكنه تغالى في اشهار اعمال تعبديه حتى قيل بأنه مسلم اكثر من المسلمين كما قيل عمن كان من حزب الملوك بأنه ملكي اكثر من الملك .

فنحن — معشر المسلمين — ننظر لاخينا هذا الناطق بكلمة الشهادة بعين الود والصفاء ونتمنى له كمال الهداية ودوام التوفيق والبقاء وتهنيه على الدخول في اخاء امة تزيد افرادها على خمس مجموع الجنس البشري . فالمسلمون ثلاثمائة مليون متفق على كلمة .

« لا اله الا الله محمد رسول الله »

والفضل في انتشار هذه اللغة بينكم هو ولاشك لاساتذتها والساعين في

ترقيتها والمقبلين على تحصيلها ودرسها. فمن اوائك الاساتذة حضرة رئيسنا في هذه الجلسة الشيخ هارتويغ ديرنبورغ المحترم مفسر القرآن في دار فنون سوربون فهو يستخرج لنا في كل سنة انفس الكتب العربية القديمة ويصححها ويشرحها ثم ينشرها بين الطلاب. فمما تحفنا به اخيراً كتاب النكت العصرية في اخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمني وقبله كتاب الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا وكتاب العصا لاسامة بن منقذ والكتاب لسيبويه ومجموعة في المساند الحميرية وغير ذلك من الآثار المفيدة. فليشكره العلم والعرب وعامة المسلمين على مساعيه الجميلة.

ومن الساعين في ترقية هذه اللغة «جمعية نشر اللغات الاجنبية» التي ندبتني لعمل هذا القونفرانس مع عدم اهليتي فاشكرها خاصة واشكركم جميعاً على تشريفكم في هذه الليلة المأنوسة وارجو أن يولد درس اللغة العربية وادابها في قلوبكم ميلا لاهل هذه اللغة كما ولد فيكم درس اليونانية هياما فيمن يدعون انهم من نسل اولئك الفلاسفة العظام الذين حفظت العرب لكم علومهم وادابهم.

وقد اخترت بعد مذاكرة الرئيس والجمعية ان اعرض على مسامعكم واشرح لكم اساس المسئلة الشرقية وما كانت عليه في اوائل القرن الثامن عشر وما تقدمه من القرون الماضية. ثم اعرض عليكم في جلسة اخرى منشأ العلائق الودية بين دولة فرنسا والخلافة الاسلامية.

وهنا فصل الخطيب الكلام على اساس هذه المسئلة المعضلة وشرحها شرحاً وافياً. وختم مبحثه قائلاً:

فيؤخذ مما تقدم ان اساس المسئلة الشرقية هو رقابة بين اقوام الشرق وبين اقوام الغرب. وكر الاولى وفر الثانية من امامها ثم فر الاولى وكر الثانية عليها وبالعكس فهما كالبحرين الزاخرين ان مد هذا جزر ذاك وان مد ذاك جزر هذا.

والدين اعظم مروج لهذه الرقابة وهو بيد اصحاب الخروج والدعوة آلة يسوقون بها الاقوام للحرب والضرب وتسخير البلاد وسبي العباد .

ان الشرائع القت بيننا احنا واودعتنا افنين العداوات

ومع هذا ينبغي لنا الاعتراف بأن الدين ليس سبباً مستقلاً لتلك الرقابة بل الطمع يقود للعداوة والحرب اكثر من الايمان والتعصب .

يحكى ان الدون سانش بن الفونس ملك قشتاله لما نصبه البابا رئيساً على الحرب الصليبية الثانية ورسمه ملكاً على مصر تهلل وجه الحاضرين بالبشر فسأل الدون ترجمانه وكان يجهل اللاتينية عن سبب ضجيج القوم فأجابه من فرحهم برسمك ملكاً على مصر فقال لترجمانه وانت لاتكن ناكراً لهذا الجميل بل قم واعلن الأب المقدس خليفة على بغداد . فهذا يدلنا على ان ذهاب الصليبيين لسوريا وفلسطين لم يكن لتخليص قبر السيد المسيح كما يتوهم ذوو العقول الساذجة بل لفتح البلاد وتقلد امارتها .

ونحن الآن — ايها السادة — في نهاية عصر راجت فيه سوق العلم والحضارة وزالت عن ابصار كثير من بني الانسان الغشاوة ومع هذا نرى بكل أسف آثار التعصب الشرقي والأفكار الصليبية الغربية وكلاهما من بقايا الأزمنة المتوسطة فعار على الانسانية التي تخطو في كل جيل خطوة الى الامام أن يبقى فيها شائبة من آثار الأزمنة المظلمة . وعيب على ذوي العقول الزكية ان يروجوا مطالبهم بآتين تزرعان الفتن والعداوات بين سكان ارض مشتركة او بلد واحدة . ونرجو ان يبدل الحال بأحسن منه في العصر المقبل الذي سيفوق ماتقدمه من العصور علماً وحضارة ونجاحاً وانتظاماً ونقول فيه بلسان واحد (لاتعصب اسلامي ولا حرباً صليبية) (في فناتيزم ني قروازاد) .

فصفق الحاضرون استحساناً وشكره الرئيس المشار اليه وختم الجلسة . فقام الناس يتعارفون ويسلمون ثم انصرفوا شاكرين .

مقدمة المؤلف

سنة ١٨٨٩م كنت في الاستانة العلية تلميذاً في المكتب الملكي الشاهاني وكان لي رفيق هو عندي بمنزلة الصديق بل والشقيق . فناولني يوماً من الأيام كتاباً عنوانه (أس انقلاب) تأليف صاحب العطوفة احمد مدحت افندي مدير جريدة «ترجمان حقيقت» التركية التي تصدر في مركز الخلافة الاسلامية وأوصاني بالحرص عليه وتلاوته سراً لأنه لم يكن يسمح لنا بقراءة الكتب التي ليست غير رسمية ولاسيما مايتعلق منها بالمسائل الحاضرة السياسية. فحفظته على صدري بين القميصين وصرت اطالعه كلما جن الليل ورقدت العيون وانقطعت الحركة واستتب السكون. وكان سريري في «القاووش» نمره ٣ مرقماً بعدد ٧٣ وقريباً من فانوس الزيت المعلق وسط الغرفة المشتملة على نيف وثلاثين سريراً . فبينما كنت ذات ليلة اتصفح الكتاب سمع رئيس المبصرين وهو يتجسس احوال الطلبة صوت تقليب الورق ولعل حركته الخفيفة في تلك الليلة الظلماء اخلت بالسكون المستولي على ذلك البناء فجاء على اثر الصدى وعثر على الكتاب وضبطه مني وفي الصباح جازاني على ماقترفته يدي وتوبني عن العود الى فعلتي .

فمن جملة ماوقفت عليه في كتاب « أس الانقلاب » تعريف المسئلة الشرقية وتصويرها وكنت لااعرف لها اثراً ولا اسمع عنها خبراً . فشغفت بالبحث عن حقائقها والوقوف على اسرار دقائقها . ولم يتيسر لي ذلك وانا في الاستانة لخروج المسئلة عن بروغرام المدرسة وعدم وجود الكتب اللازمة ومع هذا جمعت فيها

ماقرأته وكلما سمعته بعد ذلك فوعيته . ثم لما قذفتني حوادث الدهر بل ونوائب العمر من ضفاف البوسفور الى باريس واناءتني المتربة فيها عن الأشتغال بغير التحصيل والتدريس لزمت مدرسة علومها السياسية وشاهدت العناية بتدريس المسئلة الشرقية وافرادها بدرس خصوصي وتفريقها عن التاريخ السياسي . وقد تفرغ لتحقيقها وجمع شواردها احد كبار العلماء ولو كان حديث السن الا وهو استاذنا العلامة موسيو البرفراندال وكتب في فروعها كتباً كثيرة مطولة ولكنه لم يجمعها في باب ولا جمعها بعد في كتاب. فالتقطت ماتناثر عن سدة تدريسه من فرائد المسائل واضفته الى ماجمعته في السنين الأوائل ثم ضممت الى المجموع ماسمعته ووعيته من شيخ التاريخ السياسي المسيو البر سورل ومن وزير المعارف الفرنساوية المسيو رامبو وغيرهما من العلماء الأعلام واصحاب الحل والربط في هذا المقام . وبعد ان كمل عندي الجمع وجدت جريدة الأهرام — وهي المشتهرة بالرأي الأصيل والمنتشرة على ضفاف السين والبسفور والنيل — قد فتحت باباً للروايات والتواريخ . فتطفلت عليها بعرض ماجمعته وسودته في هذا الباب مع علمي بأني في اسفل درجة من السلم الذي صعد عليه كتابها الى السماء الاولى من فصاحة اللغة العربية وبلاغتها وطرق الافادة بها ولكن اذا كان الموضوع سامياً والمعنى صحيحاً فجودة اللفظ وحسن التعبير يكونان من قبيل اللباس والحلى لذات الحسن الكثير والشأن الخطير وتجردهما منهما وان حط في قدرها لايطفئ بالكلية نور بدرها .

على ان قصدي من نشر ذلك ليس مجرد افادة القراء الكرام عن هذه المسئلة التي تهم العوام ويجب لا بل يفترض على الخواص معرفتها ولا ارشاد من يهيم وهو يبحث عنها في كل واد ويفتش فلا يجد له من دليل فيها ولاهاد وانما هو استفادتي من بحث وتحقيق الشرقيين المشتغلين بعلم التاريخ وسياسة الامصار لاعتقادي بان برق الحقيقة لايلمع الا بتصادم

الافكار فاذا اشتركنا جميعاً في العمل امكننا في المستقبل ان نتحف الامة العثمانية بكتاب يشتمل على تاريخ حياتها السياسية لان ماحرره في هذا الموضوع علماء الافرنج مع شدة مراعاتهم للحق والعدل وبعدهم عن الغرض الصادر عن الجهل لم يخل من تضحية منافع البلاد الشرقية لمصالح الدول الاوروبية واكبر دليل على ذلك تقسيمهم في علم حقوق الدول البلاد الى بلاد نصرانية وبلاد خارجة عن النصرانية كأن الحق في الاولى غيره في الثانية والحق لدى العقل السليم حق لايتجزأ ولايتغير بتغير الازمان ولايختلف باختلاف الاماكن والاديان . ثم ان جهل علماء التاريخ السياسي باللغات الشرقية وبحقائق الشريعة الاسلامية يضلهم احياناً في شعاب المسئلة الشرقية وفجاجها ويحيد بهم عن الصراط المستقيم الموصل للحقائق الصريحة والنتائج الصحيحة وسنفصل ذلك في بابه ان شاءالله تعالى .

باريس في ١٣ اكتوبر سنة ١٨٩٧ — وحي الخالدي

تعريف المسئلة الشرقية :

ان المسائل السياسية التي تشغل وزارات اوروبا من وقت لآخر كثيرة ، ولكن اعضل هذه المسائل واقدمها عهداً واكثرها عرقلةً واصعبها حلاً هي المسئلة الشرقية، ويمكن تصويرها بهذا السوآل وهو :

هل تحافظ اوروبا على بقاء المملكة العثمانية او تتركها تنقرض وتزول ؟

وبيانه :

اولاً . ـ ان الدولة الروسية قد ساقها الحرص والطمع حتى اضمرت الاستيلاء على القسطنطينية والتحكم بالسياسة الاوروبية . وحصر تجارة الدنيا بيدها ، ولذا لم تنفك منذ عصرين؛ عن تحريض الاقوام المسيحية اتتابعة للباب العالى على العصيان لاتخاذ ذلك وسيلة للمداخلات السياسية .

ثانياً . ـ ان الدول الغربية جرتها المنافع التجارية ، والاحتراز من تحكم دولة روسيا بسياسة اوروبا ؛ لمنعها عن تزييد قوتها بالاستيلاء على الدولة العثمانية .

ولم ترلصدها عنها سوى وجهين :

احدهما: تقسيم الممالك المحروسة بين دول اوروبا عامة . وهذا متعسر؛ لعدم قابلية تلك الممالك للقسمة ، بخلاف ماوقع لبعض الدول في بولونيا ، ولذا لم يلجأوا الى هذا الوجه الابعد جدال عنيف وتجربة الوجه الثاني .

ثانيهما : تشويق الدولة العلية للاصلاحات الجديدة وسوقها لاجراء ذلك ولو

بالاكراه والتضييق . فاذا اعادت قوتها السابقة حمت نفسها، وصارت لبقية الدول الاوروبية سداً منيعاً امام هجوم الدولة الروسيه . ولم تخش تهديدها دول اوروبا كما سبق لها ذلك لانحطاطها عنهم كثيراً، بل حسبوا احياء روسيا لقومية الصقالبة (السلاف) ـ وهم اكثر الاقوام الاوروبية عدداً ـ اشدّ خطراً على اوروبا مما لحقها سابقاً من العثمانيين .

فالمسئلة الشرقية اذن : هي جدال سياسي على استبقاء الممالك المحروسة ، اوتقسيمها وربما افضى ذلك الجدال الى قتال بين الدولة العثمانية لسعيها في المحافظة على بقائها ودول انكلتره و فرنسا واوستريا وايطاليا العاملين على حمايتها والمحافظة على (كيانها) لمنافعهم التجارية ولمنع توسع الدولة الروسية، اوعلى اخذ كل نصيبه منها عند حصول الاتفاق بينهم من جهة . وبين دولة روسيا والاقوام التي خرجت او تريد الخروج عن طاعة العثمانيين كاليونان والرومان والصرب والبلغار ... الخ ... لرغبتهم في اضعاف الدولة العثمانية والاستيلاء عليها او توسيع ممالكهم من املاكها من جهة اخرى . وقدساقت سياسة دفع اوستريا للشرق ممالك بروسيا وامبراطور المانيا ليلعب على مسرح هذه المسئلة دوراً مهما .

اما المحرك الاعظم لطمع الدولة الروسية وحرصها على حل المسئلة الشرقية فهو موقع القسطنطينية الطبيعي، فان هذه المدينة باب مفتوح لاوروبا على آسيا، ولآسيا على اوروبا . اوهي حلقة من سلسلة تربط العالم الاسيوى بالعالم الاوروبي . وكلما اتسع نطاق التجارة وصورت لنا الكرة كانها لابسة درعاً من خطوط المسالك البحرية والطرق الحديدية البرية زادت اهمية البوسفور . وزاد فيه الزحام . واشتد عليه الخصام لانه مجمع البحرين، ومفرق البرين ، وملتقى العالمين ، ومبارك في الدينين .

فاستيلاء الروس على القسطنطينية هو اقفال هذا الباب على اوروبا كلها لمنفعة دولة واحدة فقط اوهو الحكم على دول اوروبا المقيدة باعطاء جزية المزور عن يدوهم

صاغرون للدولة المطلقة ، وترك اليونان يستولون عليها - لوفرض امكان ما يستحيل - وهوخرق لقوانين الطبيعة بجعل المظروف اعظم من الظرف والجزء اعظم من الكل . واوستريا لاتستطيع التوصل الى هذه المدينة برغم وصية شيخ السياسة بسمارك بوجوب دفع اوستريا تدريجاً لسلانيك ونهائياً الى الاستانة ان امكن ، ليستولى امبراطور المانيا على فينا ثم على تريستا ويحصل على جميع الولايات الالمانية، وعلى ثغر في البحر المتوسط ، ويتمكن من تصدير المصنوعات التي تضيق بها بلاده . وانكلتره لاقدرة لها على حمل هند جديدة تثقل عاتقها وتذهب قواها وتهوي بها الى الدرك الاسفل والانحطاط . وفرنسا وايطاليا والمانيا لايطمعن بفتح القسطنطينية وان كان لهن مآرب اخرى خصوصية . فينتج من ذلك ان لادولة غربية صالحة لحكم القسطنطينية، ولا يصلح لها بالنظر لعامة المنافع الاوروبية غير الدولة العثمانية، لابقاء من ذلك على ما كان وارجاع الشيء الى اصله ، وهو كون البلاد العثمانية للعثمانيين ولان الدولة العلية تتساهل جداً مع الاجانب وتفتح ثغورها لمراكبهم وتجعل بلادها سوقا لتجارتهم وتبالغ لهم في الاكرام والضيافة ولاتخل اصلاً بمنافعهم الاقتصادية، فهم في دارها على السعة والرحب كانهم في دارهم واكثر، ولذا قررت اوروبا حفظ استقلال الدولة العثمانية تاماً وابعاد كل خطر عنها .

ولكن لسوء الحظ لم يمنع هذا القرار اختلاس الكثير من املاكها والتعدي على حقوقها ، تارة باسم القومية والنصرانية وطوراً باسم الاصلاح والمدنية ولم تمكنها الدول اصلاً من لم شعثها واعادة قوتها ومجاراتهن في سبيل الرقي والنجاح .

اساس المسئلة الشرقية:

هذا مجمل تعريف المسئلة الشرقية، اما اساسها فينبغي التحري عليه في الازمنة المتوسطة والقرون الخالية، وهو عبارة عن منافسة الشرق للغرب وطمع سكان كل منهما في الاستيلاء على الآخر. وكان الدين اعظم مروج لهذه المنافسة لانه لما ظهر الاسلام (٦٢٢ م) ودخل في عداد الاديان الكبرى بانتشاره من شرق آسيا لغرب افريقية، ظهرت المنافسة بينه وبين الدين المسيحي المستولي على اوروبا وآسيا الصغرى. وصار كل منهما ينازع صاحبه البقاء ويروم التفرد بالاستيلاء على العالم بأسره.

ففي القرن الثامن هجم المسلمون على اوروبا من الغرب وتجاوزوا فيها من اسبانيا الى فرنسا حتى بلغوا پواتية (٧٣٢ م) ونهوا الناس عن اكل لحم الخنزير وشرب الخمر فكبر ذلك عليهم وجمع شارل مارتيل قومه وسلحهم بالبلطات فحاربوا المسلمين محاربة القانطين وصدوهم عن التقدم نحو الشمال، ثم ارجعوهم الى اسبانيا.

وبالرغم من انكار اهل الشمال الاحكام التي اتاهم بها المسلمون — ولعله لطبيعة اقليمهم واشتداد البرد فيه — رضخ لها اهل الجنوب وكاد الاسلام يعم اوروبا الجنوبية واستمر فيها المسلمون من القرن الثامن الى القرن الحادي عشر. فكانت جزيرة صقلية كاسبانية داراً للاسلام كما كان الاسلام منتشراً في ايالة سردانية وكورسيكا وايالة بروڤانس وهي القسم الجنوبي من فرنسا. وكان في فريسنة (١) — وتسمى اليوم لاغار دفرينه — من الايالة المذكورة مستعمرة اسلامية في غاية الاتساع والعمران. وكاد البحر المتوسط وبحر الادرياتيك

(1) Fraissinet - Lagarde-Frainet. Revue des Deux Mondes 1r Xbre 1865 و 1r Mai et 1r Octobre 1864.

يكونان بحرين اسلاميين . والحاصل يمكن ان يقال بدون ادنى مبالغة ان مسئلة حسبان اوروبا الجنوبية دار اسلام ام دار حرب كانت من المسائل المختلف فيها مدة ثلاثة قرون .

وبعد ان انقسمت الخلافة الاسلامية الى عباسية واموية (٧٥٠ م) وزال نفوذ الروم عن الممالك الرومانية الغربية وخرب شارلمان مملكة اللومبارد ، وقام خلفاً لقياصرة الرومان ، رغب العباسيون في موالاة الافرنج واجاب هرون الرشيد الامبراطور شارلمان على طلبه وبعث اليه في السنة التي انتصر فيها على قيصر الروم (٨٠٧ م) بسفارة تحمل له مفاتيح القبر المقدس والهدايا الفاخرة الثمينة وكان في جملة تلك الهدايا فيلان وسرادق كبير من الحرير ، وافخر الطيب والعطور وساعة دقاقة وشطرنج من صنع بلاد الهند ولا نزال نشاهد بعض قطع منه في المكتبة الاهلية بباريس ، فكان هذا اول علاقة ودية بين الشرق والغرب واول تقرب وائتلاف بين الخلافة الاسلامية وبين بكر الكنيسة الكاثوليكية .

ودامت الخلافة في عز وقوة حتى ظهر المأمون وملك طاهراً ولاية خراسان بطريق الارث مكافأة له على قتل اخيه الامين فاتخذ الولاة ذلك نموذجاً لهم وطمعوا في الاستقلال ولم يخشوا بأس الحكومة المركزية . وادخل المعتصم في خدمته شبان الاتراك المهاجرين من تركستان لمركز الخلافة الاسلامية . فاكتسبوا نفوذاً زائداً وقبضوا على زمام الامور واحدثوا ملوك الطوائف واضعفوا قوة الخلافة المادية . ومع ذلك فجميع الممالك الاسلامية بقطع النظر عن ديار الاندلس وخلفائها الامويين كانت تعتبر العباسيين ملوك الملوك وتقدم اسماءهم في الخطبة على كل الامراء والملوك . ودام الحال على هذا المنوال الى ان ظهر الخلفاء الفاطميون في القيروان والمهدية واستولوا على مصر وبر الشام وتشيع لهم اكثر المسلمين . عندها ضعفت قوة الخلافة الروحية واصبحت الممالك الاسلامية في اواخر القرن

العاشر منقسمة الى ثلاث خلافات :

(١) الخلافة العباسية في آسيا ومركزها بغداد .

(٢) الخلافة الاموية في اوروبا ومركزها قرطبة .

(٣) الخلافة الفاطمية في افريقية ومركزها القاهرة .

واما الدول السياسية فكانت اربعاً : الاموية والفاطمية والبويهية والسامانية.

ولما تم الملك لآل سلجوق كانت الخلافة الاموية انقرضت عن الاندلس وتفرق ملكها بين الامراء ، والخلافة الفاطمية خف نفوذها فبقيت الخلافة العباسية بلا منازع وقرئت الخطبة باسماء خلفائها مقرونة باسماء الملوك السلجوقية في مكة والمدينة والقدس وبغداد وبخارى وسمرقند وكاشغر وامتدت سلطنة جلال الدين ملك شاه السلجوقي من الهند وسمرقند الى مضيق القسطنطينية، فتجددت قوة الخلافة الاسلامية بواسطة الاتراك بعد انقراض دولة العرب واستولى يوسف وهو من المرابطين على بلاد من الاندلس وبايع الخليفة العباسي فاتحدت دولة الاسلام وعادت شوكة خلافتها .

عند ذلك هاجت اوربا وماجت وغلا التعصب حتى اثار في اواخر الجيل الحادي عشر حروباً هائلة بين الاقوام الغربية النصرانية التي استولت على مملكة الرومان وبين الاقوام الشرقية الاسلامية التي استولت فيما بعد على مملكة الروم ودعيت « بالحروب الصليبية » . (١٠٩٦ ـ ١٢٩١ م) . فبعدان اجلى الغربيون الشرقيين الذين يسمونهم (سارَزين) (١) عن جنوب اوروبا خافوا من

---

(١) وهذه الكلمة محرفة عن اللفظ العربي سارقين اوشراقين اوشرقيين ويطلقها الفرنج في الازمنة المتوسطة على العرب الذين هاجوا اوروبا وافريقيا .

هجومهم عليها مرة ثانية لمشاهدتهم اتحاد دولة الاسلام وتهديدها لهم في اسبانيا وايطاليا والقسطنطينية ورغبوا في استخلاص الاماكن المقدسة من ايديهم فاعتدوا هم ايضاً على الشرق وهجموا على آسيا وافريقية. وكانت الامة الفرنساوية، في مقدمة الامم الغربية التي اطلق عليها اسم الفرنج ؛ وهو من اطلاق الجزء وارادة الكل. والحامل لها على هذه الغيرة الدينية الامة الطليانية كما قال ڤولتير : « بكوا في ايتاليا فتسلحوا لهم في فرانسا ». وكانت الغلبة في باديء تلك الحروب للاقوام النصرانية « كما اراد الله » (١) وارتفع الصليب مكان الهلال على قبة صخرة بيت المقدس ليحفر بين الشرق والغرب وادياً عظيماً يفرق بين اهلها ويجعل كل فريق منهم يدرك معنى الحياة في هذه الدنيا على خلاف مايتصوره خصمه. والقى الدين بين الشرقيين والغربيين عداوة صيرت الحق عند احدهما باطلاً عند الآخر.

والدين انصافك الاقوام كلهم
واي دين لابى الحق ان وجبا
والمرء يعييه قود النفس مصحبةً
للخير وهو يقود العسكر اللجبا (٢)

ولم يلبث فوز الامم الغربية في الشرق اكثر من قرن حتى ظهر صلاح الدين (٣) بل والدنيا وارجعهم لديارهم بعد ان اعطاهم درساً مهماً في علم الحياة.

نعم رجعوا عن غنيمتهم بعد الكد بالقفل، ولكنهم غنموا ما كان سبباً لما نشاهده اليوم في اوروبا من الانتظام والنجاح. غنموا انتباهاً من رقدة الجهل بمخالطتهم الامم الشرقية المحافظة على علوم المتقدمين. غنموا اخوة دينية عقبها رابطة

---

(١) تعتبر صليبي Dieu le veut
(٢) لابي العلاء المعري في اللزوميات.
(٣) (١١٣٧-١١٩٣)

قومية بعد ان كانوا بسبب مبادئ (الفيوداليته (١))اي حكم الاقطاع متفرقين . واسسوا علائق تجارية بين سواحل الشرق وممالك او جماهير البحر المتوسط حتى اصبحت مدائن بيزا وجنوه والبندقية وبرشلونة ومرسيليا من اعمر المراكز التجارية واغنى المدن البحرية. ووسعوا نطاق الصناعة والزراعة حتى صار يعرض في اسواقهم محصولات لم ير لها من قبل مثيل . والحاصل اخذت اوروبا من الشرق جراثيم الثروة والحضارة التي هي اليوم متنعمة بظلالها الوارفة .

فالحروب الصليبية اخرت دخول الاتراك الى اوروبا حيناً من الدهر ولكنها لم تمنع بالكلية كرة الاسلام عليها مرةً ثانية من الشرق في عهد الاتراك العثمانيين كما هاجمتها اولاً من الغرب والجنوب في خلافة العرب الامويين والعباسيين ففي النصف الثاني من القرن الخامس عشر فتح الفاتح القسطنطينية (١٤٥٣) «فلنعم الامير اميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » (١) وحلت خلفاء الدولة العثمانية محل قياصرة الروم . ولكن فرديناند الكاثوليكي «١٤٥٢ - ١٥١٦» اخرج المسلمين من اسبانيا (١٤٩٢) وقطع عن اوروبا مجاري العلم والحضارة التي كانت

---

(١) الفيوداليته هي مجموع القوانين والعادات التي كانت تطبق عليها المسائل السياسية والاجتماعية في فرنسا لابل في اوروبا منذ القرن التاسع لنهاية الازمنة المتوسطة وهي كلمة مشتقة من فيؤديوم (فيف) اللاتينية ومعناها ارض الاخلاص . وهذه الاراضي كانت تمنحها الملوك والامراء للاشراف من اتباعهم على شريطة القيام ببعض خدماتهم ويتصرفون بها كيف شاؤا ويمنحون شيئاً منها لمن دونهم من الاشراف على تلك الشريطة فكانت جميع اوروبا منقسمة بحسب هذه المبادئ ومتسلسلة في التابعية . فلما جاءت الحروب الصليبية ابعدت اكثر الامراء عن اراضيهم واجبرتهم على تركها للاهالي والزراع في مقابلة الدراهم التي استقرضوها منهم لتجهيز الحملات على الشرق .

(١) حديث شريف

تتدفق عليها من بلاد الاندلس . وايوان الثالث ازال من الشرق دولة القپچاق الاسلامية (١٤٨١) ووضع على رسومها اساس الدولة المسقوفيه .

فمنذ وجدت الاتراك في اوروبا او بعبارة اخرى منذ دخل الاسلام اوروبا من الشرق وجدت مسئلتنا الشرقية . ومنذ دخلت روسيا في مصاف الدول المعظمة الاوروبية ادعت حل هذه المسئلة حلا موافقا لمنافعها الخصوصية .

ميدان المسئلة الشرقية

اما ميدان المسئلة الشرقية أي المواقع التي تسبب حدوث ارتباكاتها السياسية فهي شبه جزيرة البلقان باجمعها ، والبحر الاسود بسواحله ومعابره ، واسيا الصغرى وكردستان وفيها ارمينيا ، وسوريا وفلسطين ويتبعهما العراق وجزيرة العرب ، ومصر ، وقسم عظيم من ساحل افريقية الشمالي يشتمل على طرابلس وتونس والجزائر .

هذه الاماكن هي اشرف واقدس اماكن العالم لانها مهبط الوحي ومبعث الانبياء ومنشأ العقلاء والحكماء ففيها النبوة وفيها الحكمة . فهي مهد المدنية ومنبع المعارف الانسانية ؛ وهي ابرك واخصب اراضي الدنيا واحسن موقع للتجارة كما يتضح لمن نظر الى الخريطة فانه يشاهد سواحل كثيرة ذات دخلات وخرجات كبيرة وخلجاناً عديدة ومراسي طبيعية وارخبيلاً عظيماً يجمع بين آسيا الصغرى وبلاد اليونان ويقرب اليهما سوريا وفلسطين ومصر بواسطة جزائر رودس وقبرص وكريد ويرى مضيقين يصلان البحر الابيض بالبحر الاسود ومضيقاً ثالثا يصل الاخير ببحر ازاق ، ونهر الطونه الصالح لسير السفن الكبيرة يربط شرقي اوروبا بغربيها ويصب في البحر الاسود بعد ان يمر في واد كثير الخصب والزرع .

فجميع هذه المواقع الطبيعية تساعد التجار على ارسال سفنها لداخل البر ونشر تجارتها في اقاصي البلاد ولذا اصبحت تلك الديار محط رحال التجار ومنزلة تتقاطع فيها اكبر طرق التجارة . فالاستانة هي اهم مدن العالم واكثرها حركة تجارية حيث تتقاطر البواخر في البوسفور بدون انقطاع آتية من البحر الابيض اوراجعة من البحر الاسود وحركتها البحرية تزيد على اثنين وعشرين مليون طونيلاته(١) فهي ولا شك سيدة البحرين وعاصمة البرين لابل الدنيا لقابلية موقعها الجغرافي للحكم على العالم بأسره . وهي جسر بين اوروبا وآسيا كما ان مصر جسر بين اوروبا والشرق الاقصى. قلت مصر ويا رعى الله مصر ففي مصر مفاتيح الممالك الشرقية وكل من استولى على مصر تمكن من بيت المقدس وارض الحجاز ومن النفوذ لداخل القارة الافريقية وتحكم بالحجاج الذين يفدون لزيارة هاتيك الاماكن المقدسة من جميع انحاء العوالم النصرانية والاسلامية واستحوذ على التجارة الهندية ونال بسببها الثروة والقوة والرفاهية. وكل من دخل مصر ولو من الاقاليم المجاورة لها شعر بانشراح صدر ونشاط لأن هواءها حار نقي ونورها ساطع بهي وماءها عذب شهي ولاينقصها شيء من لوازم السعادة والعمران غير اجتهاد اهلها وتسابقهم في ميدان العرفان .

---

(١) الطونيلاتة هي وزن متر مكعب من الماء ويشترط فيه ان يكون مقطراً وعلى حرارة اربع درجات من ميزان سنتغراد وكل طونيلاتة الف كيلوغرام وكل كيلوغرام الف غرام . اما الحركة البحرية فهي عبارة عن مجموع محمولات البواخر والسفن الواردة للمرسى التجاري والصادرة منه . ومن احصاآت سنة ١٨٨٨ يظهر ان الحركة التجارية البحرية في الاستانة ٢٢،٢ مليون طونيلاتة وفي لوندرة ١٤،٢ مليون فقط . وفي جبل طارق ١٣،٤ مليون وفي نيويورك ١١،٦ مليون وفي ليفربول ١١،٣ مليون وفي مرسيليا ٨،٣ مليون وفي ازمير ٣،٣ وفي اوديسا ٣،٢ مليون.

وخصب وادي النيل اشهر من ان يذكر ويضاهيه في الخصب وقوة الانبات الجزيرة التي يسقيها الفرات ودجلة لو التفت اليها . فان طلب محمد علي باشا من السلطان ابداله مصر بالعراق مما يدلنا على انها مصر ثانية . وذكر هيردوت مؤرخ القرون الاولى أن الحبة تغل في الجزيرة اربعاية حبة فمهما بالغ المؤرخ فلا ينكر استعداد تلك الاراضي لزيادة الانبات وتكثير المحصولات واحداث عمران جديد يفوق على ما اوجده فيها قبلاً البابليون ثم العباسيون . وقد اشتهرت عندنا سورية بالانهار والجنان وعرف ادباؤنا الشام بشامة وجه البلدان (١) ولكن خفي علينا مافي فلسطين من المعادن والاراضي المنبتة كوادي الشريعة واراضي الغيران . وبالاختصار ان هذه البلاد هي التي بعثت لعالم الانسان بموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وهي التي ربت في حجرها قدماء المصريين والفنيقيين والعبرانيين والبابليين واليونان والبزانطيين والعرب ثم الترك .

فلا ينبغي لنا اذن ان نعجب من تطلع الاجانب اليها وطمعهم فيها واشتداد حرصهم عليها .

دخول الاتراك في الدولة الاسلامية

اول ظهور الاتراك في الدولة الاسلامية كان في ابتداء القرن التاسع للميلاد في خلافة المعتصم بالله . وذلك ان الخليفة المشار اليه اختار من عشائر الترك اقواها واشجعها والف منهم عساكره الخاصة فاكتسب ذلك الجيش المختار قوةً ونفوذاً وصار الحل والعقد بيد رؤسائه وآل اليهم الامر والنهي في قصر الخلافة حتى غدوا اصحاب الحكم بالفعل لا بالاسم .

وفي القرن العاشر قذف تيار الهجرة عشائر الترك خارج تركستان فدخلوا العراق وكردستان ووضع رئيسهم توغيل بك حفيد امير تركستان المسمى

(١) ريحانة الالباء للشهاب

سلجوق اساس الدولة السلجوقية . واخذ من الخليفة العباسي عنوان السلطان وحكم السلجوقيون باسم العباسيين جميع الممالك الاسلامية في الشرق وضبطوا بالفعل حكومتهم المدنية ولم يبقوا لهم الا القوة الروحانية .

وبعد وفاة خلفه الثاني ملك شاه (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) انقسمت المملكة السلجوقية الى سلطنات العجم وحلب ودمشق وايقنوم روم. ثم انقسمت سلطنة الروم ايضاً الى عدة امارات مستقلة . ولما هجم المغول على غرب آسيا وشتتوا شمل الممالك الاسلامية كانت خلافة بغداد اسماً بلا مسمى وسلطنة الروم ظلا بلا جسم ففتح منكوخان بغداد وخربها واهلك الخليفة المستعصم وهو آخر الخلفاء العباسيين (١٢٥٨م) وجازى وزيره العلقمي شر الجزاء على خيانته مولاه وقيل في ذلك :

يادولة الاسلام نوحي والطمي حزناً على ما حل بالمستعصم
دست الوزارة كان عذباً سائغاً لابن الفرات فصار لابن العلقمي

ولم تدم سلطنة المغول حتى انحلت عراها وتألفت منها دولة في الصين واخرى في العجم حتى انقسمت آسيا الغربية الى عدة ممالك صغيرة . وسعت ملوك الدولة السلجوقية الملقبون بسلاطين ايقنوم روم في لم شعث تلك الممالك واعادة نفوذ دولتهم السابق فلم يثمر مسعاهم ولا تحققت امانيهم. فبينما كانت الدولة السلجوقية تقاسي نزع الموت اذ ظهر العثمانيون في ميدان الوجود وتهيأوا لاخذ ميراثهم وتفصيل الخبر :

ظهور الدولة العثمانية

ان جنكيز خان لما فتك بدولة خوارزم ووطئ خراسان بخيله ورجله هاجر منها سليمان شاه بن قيا الب احد امراء تركستان وبمعيته خمسون الفاً من عشائر التركمان وجاؤا حلب عن طريق اذربيجان والبستان (١٢٢٤ م) ثم رجعوا منها وغرق سليمان شاه في نهر الفرات وهو عابر فيه ودفن بجوار قلعة جعبر ولم يزل

يقال لقبره « ترك مزاري » . واستمر القسم الاعظم من العشيرة في سيره الى خراسان تحت قيادة ولديه الاكبرين وتوجه بقيتهم الى الاناضول وكانوا زهاء اربعمائة عائلة تحت قيادة ولديه الاصغرين ديندار وارطغرل . فبينما هم في اثناء الطريق اذ شاهدوا معركة بين التتار وفرقة من عساكر السلجوقيين فانتصروا للسلجوقيين وغلبوا التتار فاكرمهم السلطان علاء الدين السلجوقي واسكنهم في ناحية « سكوت » وكانت على حدود مملكة بيزانس فافتتح منها عثمان بك « عثمانجق » بن ارطغرل بعض قلاع فكافأه السلطان بعلم ابيض وعدة طبول ومنشور خاطبه فيه بهذه العبارة « مرزبان عالي جاه عثمان شاه » وصار اول سلطان (١) للدولة المعظمة التي دعيت باسمه واستولى على المقاطعات المجاورة له . ونظم خلفه اورخان « ٢ » البلاد التي افتتحها سلفه واسس الوزارة والف عساكر جديدة دائمة عرفت بالانكشارية « يني چرى » وعمر الجوامع والمدارس واوصل سيوفه لساحل اوروبا المقابل لچناق قلعة « هيلسبوند » فكانت الظروف تساعده والزمان طوع يديه اذ كانت مملكة الصرب منقسمة ومملكة الروم في القسطنطينية هرمة مستضعفة . وكان القيصر جان قونتاقوزين باليولوغ « ٣ » قدم له ابنته زوجة واستنصر به على الصرب لان اتين دونشان « ٤ » الملقب بالقوي وبقيصر مكدونيا ومحب المسيح جمع اليه الاقوام السلافية وافتتح البلغار وتهيأ للهجوم على القسطنطينية وطرد الروم منها . فعبر ابنه سليمان باشا مع ستين فدائياً ليلاً من مضيق چناق قلعة على زورقين وهاجم مدينة جمبة « ٥ » واستحضر منها الفلك اللازمة لمرور ثلاثين الف عسكري واستولى على كليبولي وقونور وبولاير ومعلقرة وابسالة ورودستو حتى اوجس جان باليولوغ خيفة من صهره المتفق معه وهكذا توطدت الدولة الاسلامية في شرق اوروبا بسيف سليمان بن اورخان « ١٣٤٦ م » كما توطدت

---

(١) « ١٢٨٨ — ١٣٢٦ » (٢) « ١٣٢٦ — ١٣٥٩ »

(٣) Jean Contacuzene Paléolog (٤) Etienne Donchant.

(٥) Tgympé

سابقاً في غربيها بسيف طارق بن زياد (٧١٠ م).

ثم استولى العثمانيون في زمن السلطان مراد الاول (١) على ادرنه وقلبه ونيش ومكدونيا والصرب عقب ظفر قوصوه «٢٧ اغستوس سنة ١٣٨٩» التي استشهد فيها السلطان المشار اليه .

وشغل خلفه السلطان بايزيد الاول «٢» بعساكره المنصورة البلغار والافلاق والبغدان وقهر الاتفاق الصليبي المؤلف من المجر والصرب والافلاق والمستعين بفرسان المانيا وبافاريا وفرنسا وشتت جمعهم في «نيكبولي» «١٣٩٦» شذرمذر. ثم اخضع هذا البطل المظفر البوسنه والهرسك وتساليا وايتاكي ولم يبق محل للفتح غير القسطنطنية . وفي الاناضول اضاف الى ممالكه الامارات التي خرجت على الدولة السلجوقية وهي ايدين ومنتشا وصاروخان وتكه وطوقاد وقرمان وقسطموني واعاد اجتماع الممالك السلجوقيه.

فوقف هجوم المغول تحت قيادة تيمورلنك سير الدولة العثمانية في اوروبا زمناً ومنع بايزيد عن اطعام حصانه الشعير على هيكل كنيسة القديس بطرس في ايتاليا كما كان يقول، وخلص موقتاً عالم النصرانية من استيلاء الأسلام . وبعد اسر السلطان بايزيد في معركة صحراء انقرة « ٢٢ تموز سنة ١٤٠٢ » تفرقت الممالك العثمانية واستقلت البلاد التي كانت خاضعة لها في الروم ايلي والاناضول وتقاتل اولاد بايزيد على الملك خمس سنوات ثم استقل بالملك السلطان محمد الاول «٣» وبذل مقدرته في استرجاع قوى المملكة وجمع شتاتها وكانت في غاية الضعف والانحطاط حتى ان مساعي السلطان مراد الثاني «٤» لم تثمر في حصار القسطنطينية وهو الحصار الثالث . ومع ذلك شتت في وقعة ادرنه شمل اعدائه

«١» «١٣٥٩ـ١٣٨٩»

«٢» « ١٣٨٩ ـ ١٤٠٣ »

« ٣ » « ١٤١٣ ـ ١٤٢١ » « ٤ » « ١٤٢١ـ١٤٥١»

الذين اتفقوا عليه، وكان اتفاقهم اعظم حملة للنصرانية على الاسلامية الشرقية وامست الصرب والهرسك والافلاق غنيمة للعثمانيين .

ثم في ٢٩ مايس سنة ١٤٥٣ فتح الفاتح (١) القسطنطينية ومحا من الوجود امبراطورية بيزانس ورفع الهلال على قبة ايا صوفيا واوجد دولة معظمة من عشيرة كادت تكون بدوية واحدث في التاريخ دوراً مهماً . وافتتح رغماً عن جان هونياد القائد المجري البوسنة وبلاد الارنؤط ودوكية اتينه والموره وحارب الجنويين واخذ من الونديك « كفه » و « القرم » . فكانت شبه جزيرة البلقان باجمعها والاناضول عدا امارة قرمان وسينوب ودولة الروم في طرابزون خاضعة للسلطان.

وساق خلفه السلطان بايزيد الولى (٢) عساكر الانكشارية الى قارتش وقارينول وستيرى وترانسلواني ليسكن حرصهم، ولكن السلطان سليم ياوز (٣) ادار اسلحتهم عن اوروبا الى العجم والمماليك وظفر بهم على عساكر الشاه اسماعيل الصفوى في صحراء چيلديران وضم الى مملكه قسماً من العراق العجمي وكردستان ثم استولى على سورية وفلسطين ومصر وخضعت له الحجاز وقرئت الخطبة باسمه في مكة والمدينة والقدس وتلقب بخادم الحرمين الشريفين وانتقلت الخلافة الاسلامية الى ملوك الدولة العثمانية .

فكانت خلافة السلطان سليمان الاول (٤) ابهى واسمى نقطة في اوج اقبال الدولة العثمانية واجمل دور للانكشارية والصباهيه (سپاهي) . هذا هو الزمن الذي حق للسلطان ان يقول فيه « ليل نهار حصاننا مسرج وسيفنا على جانبنا معلق» (٥) تجاوزت فيه الفتوحات نهر الطونه وفتحت بلغراد ورودس وجعل انتصار

---

(١) (١٤٥١—١٤٨١)

(٢) (١٤٨١-١٥١٢) (٣) ١٥١٢-١٥٢٠) (٤) (١٥٢٠-١٥٦٦)

[٥] مكتوب السلطان سليمان القانوني الى فرانسوا الاول قال فرانسا نقلا عن تاريخ جوتت جلد ١.

(مهاج) بلاد المجر في قبضة السلطان فحاصر ڤينا (١٥٢٩) وصار يتدخل في سياسة اوروبا الغربية وشغل بعساكره بلاد المجر الشرقيه واخذ الجزيه من البغدان وبسارابيه والافلاق ورست سفائنه في مياه طرابلس وتونس والجزائر. ونشر قانونه المشهور والمشتمل على اصلاحات الهيئة العلمية واصول التجارة والزعامة والمالية والعدلية والضابطة والعسكرية.

وماتم امر الاصلاح الاوبدأ السرف في البلاد واحدث رخاوة في اعصاب الدولة واستبداداً في الاحكام ففسد تركيب المملكة وآل امرها للضعف والانحطاط. فكان السلاطين العشر الاولون ابطال هذه الدولة ومشيدي اركانها اقتحموا الممالك وخاضوا المنايا وقاوموا صعاب الامور التي اعترضتهم وفرقوا الاتفاقات التي تألفت ضدهم وابرزوا للوجود دولة معظمة منظمة قوية.

ثم خلف سليمان ملوك لم يشبهوا من تقدمهم في الاقدام ولا في الغيرة والاهتمام فزادوا في الداء عوضا عن ان يفتشوا له عن دواء ومع هذا اخذت قبرص من الونديكيين في سلطنة سليم الثاني (١) ولكن (دون جيان) اضعف البحرية العثمانية في ليبانت.

وحارب السلطان مراد الثالث (٢) العجم والمجر وعصت عليه الانكشارية والصباهية فسكن عصيانهم السلطان محمد الثالث (٣) بتفريق العطايا والهدايا عليهم. ودام الانحطاط مدة سلطنة مراد الرابع (٤) وابرهيم الاول (٥) و محمد الرابع (٦) الى ان ظهر الكوبريلي فاوقف انحطاط المملكة ونفخ فيها الروح فاشتدت اعصابها

«١» «١٥٦٦-١٥٧٤» «٢» «١٥٧٤-١٥٩٥» «٣» «١٥٩٥-١٦٠٣» «١٦٠٣-١٦١٧» احمد الاول. معاهدة زدوه طوروق «١٦٠٦» مع اوستريا. مصطفى الاول «١٦١٧-١٦١٨» - عثمان الثاني «١٦١٨-١٦٢٢» اعيد مصطفى الاول للعرش «١٦٢٢» - «١٦٢٣» «٤» «١٦٢٣-١٦٤٠» «٥» «١٦٤٠-١٦٤٨» «٦» «١٦٤٨ - ١٦٨٧»

واسترجعت قوتها السابقة واشغلت ايالات بودوليا واوخرين وفولين وفتحت جزيرة كريد بعد حرب خمس وعشرين سنة واستشهاد مائة الف عسكري وكانت خاتمة الفتوحات العثمانية «[١]». وتعاقب اعيان السلالة الكوبرليه على اريكة الصدارة العظمى وساسوا المملكة بغاية الحزم والعزم والدهاء والرأي حتى غدت في اوج الاقبال وفي غاية الاتساع وتشكل من اوروبا العثمانية ثمانية باشاويات كل باشاوية تقسم الى عدة سناجق وهي :

روم ايلي ، اطه لر ، بوداواوفن ، تمشوار ، بوسنه ، سمندره ، قفه ، كريد ، واربع ممالك تدفع الجزية وهي :

ترانسلواني ، افلاق ، بغدان ، جمهورية راغورة . وتشكل من اسيا العثمانية ربعة عشر ايالة تقسم كل منها الى عدة الوية ومملكة ايمبريتيه تدفع الجزية. وكانت حدود المملكة في اسيا بحر مرمره وبحر الاسود والقفقاس الغربي وجبال كردستان وماوراء دجلة والخليج العجمي وبحر عمان والاوقيانوس الهندي والخليج العربي والبحر المتوسط وجزائر الارخبيل . وتشكل من افريقية العثمانية ايالة مصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر .

هذا ما كانت عليه المملكة العثمانية عشية محاربة (سين غوتار) (١) فاوجست الدول الاوروبية خيفة من توسعها وتقدمها في اوروبا نحو الغرب وكان اقصى آمال رجال الفاتيكان توقيف سيرها وارجاعها على اعقابها ولذا سعوا في التأليف بين الدول النصرانية وحرضوها على مقاومة الخلافة الاسلامية واغرا البابا اسكندر السابع ملك فرانسا لويس الرابع عشر على

---

[١] [١٦٦٩] لما طلب من السلطان عبدالعزيز التنزل عن كريد قال ان كريد آخر مادخلت بايدينا من الفتوحات وسوف تكون آخر مايخرج مناولذا لا اسلمها اصلا .

[١] Saint Gotthard . سنة ١٦٦٣.

محاربة احبائه العثمانيين الذين انقذوا الدولة الفرنساوية من استبداد شارلكان واعادوا الموازنة الاوروبية . وبعد ان كانت فرنسا اول من صافى الخلافة الاسلامية من دول اوروبا بعد الحروب الصليبية وجرمنها مغانم تجارية ومنافع اقتصادية ساقها التعصب الى امداد عدوها الالد امبراطور اوستريا بالقونت قوليني (١) على رأس ثلاثين الف عسكري حسبهم الترك فتياتاً (٢) لنعومة خدودهم ولطافة قدودهم ولكن عادوا فشهدوا لهم بالشجاعة في وقعة سين غوتار .

معاهدة واسفار

وبعد هذه المحاربة عقدت معاهدة واسفار (٣) بين الباب العالي واوستريا وبموجبها اخليت ترانسلواني من عساكر الدولتين واعتبرت امارة مختارة تحت حماية الدولة العلية ونصب (ابافي) اميرا عليها . واخذت اوستريا ثلاث ولايات من الولايات السبعة المجرية الواقعة بين ترانسلواني ونهر تيس وبقيت الاربعة الاخر المنسلخة عن (راغوزي) تابعة للدولة العثمانية كما بقيت (توغراد) و(نوهازل) وعقدت بينهما هدنة لعشرين سنة .

محاصرة فينا ورجوع الاسلام عن اوروبا

ولم تمض تلك المدة حتى عصت المجر على اوستريا واستنجد رئيسهم (تيكلي) بالسلطان واعترف له بالسيادة فانجده وافتتح الصدر الاعظم قره مصطفى باشا بلاد المجر وحاصر مدينة فينا بغتة وكاديفتحها . فاشتد فزع الامبراطور

---

[١] Coligny

[٢] قيل بان الكوبرلي لما راى فتيان فرانسا ملثمين ومتدثرين بالاقمشة الحريرية صرخ قائلا مالهاتيك الفتيات !!! (جونكير ص ٣٢٥) .

[٣] Vasvar ١٠ اغستوس سنة ١٦٦٤ .

ليوبولد واستنجد باوروبا فلبّاه البابا واستصرخ له باصوات النواقيس ملوك النصرانية عامة وملك فرانسا خاصة وهو بكر الكنيسة وتقيها على الخصوص . ولكن لويس الرابع عشر كان اعقل من ان يجيب هذا النداء لأنه لم ينس ما اصابه من عدوه الامبراطور في وقعة (سين غوتار) وارسل الى جان سوبسكي (١) يبرهن له بأن اعداء بولونيا في الحقيقة هم اوستريا وبراندنبرغ (بروسيا) وجلالة قيصر روسيا ويذكره بأن آل اوستريا بدلاً من ان يعترفوا بجميل الفرنساويين الذين خلصوهم في معركة سين غوتار تركوهم يموتون جوعاً وهم الغالبون . (٢)

فلم يدرك ملك بولونيا كنه هذه السياسة الرشيدة وساقه للحرب تعصبه الاعمى وبغضه لمن هم على غير دينه ولم يلتفت لصالح بلاده . وبعد الاتحاد مع امراء المانيا رفع الحصار عن فينا في ١٢ ايلول سنة ١٦٨٣ واخذت دولة الاسلام ترجع القهقرى عن شرق اوربا منذ ذاك العهد .

وفي السنة التالية لمحاصرة فينا عقدت اوستريا اتفاقاً مقدساً ضد العثمانيين ودخلت فيه بولونيا لتعصبها وعدم اصغائها لنصيحة فرنسا ، وجمهورية البندقية لاشتداد حرصها على الأخذ بثار كريد ، وفرسان مالطه والبابا لعداوتهما الطبيعية للخلافة الاسلامية وانضمت اليهم روسيا حيث كان ليوبولد يشوقها لفتح البحر الاسود وبيزانس ويقول لها بأن الروم وآسيا بانتظارها .

اما فرنسا فلما كان من صالحها وقاية الدولة العثمانية كانت تسعى سراً باخفاق هذا الاتفاق . ومع ذلك لم تزل البرودة باقية بينها وبين الباب العالي بسبب اعانتها للامبراطور في سين غوتار .

واصبحت دول اوربا متفقة وموجهة اسلحتها نحو الدولة العثمانية والخلافة

---

(١) John Sobieski

(٢) جونكير تاريخ المملكة العثمانية ص ٣٣٤ .

الاسلامية وهي لاتملك من لوازم الدفاع لمقابلة هؤلاء الاعداء الاعساكر الانكشارية الفاسدة الأخلاق والنظام .

فغلبت الأنكشارية في معارك عديدة وفاز عليهم الدوق لورين في وقعة مهاج « ١٦٨٦ » ولوي دوباد في سلانكمين (١) « ١٦٩١ » والبرنس اوجين دوسافوه في زانطه (٢) « ١٦٩٧ » وزادهم خزياً وعاراً خلعهم برقع الحياء واظهار وقاحتهم لابل جبانتهم في شوارع القسطنطينية بعصيانهم على متبوعهم المعظم .

معاهدة قارلوفجه

وبالرغم من التدابير الفعالة التي اتخذها الوزراء الكوبرلية الثلاثة احمد باشا ومصطفى باشا وحسين باشا في عهد السلطان سليمان الثاني واحمد الثاني ومصطفى الثاني اضطر الباب العالي مؤخراً الى قبول توسط سفير انكلتره بينه وبين اوستريا وامضى معاهدة قارلوفجه (٣) سنة ١٦٩٩ وتنزل لاوستريا عن بلاد المجر الشرقية وترانسلواني واسلافونيا وخراوات ولم يبق له الا الاراضي الكائنة بين نهري ماروس وتيس المنصبان في الطونة . وفي ايالة سيرمي سحب خط من مصب نهر تيس في الطونة لمصب نهر بوسنه في ساوا ومن هذه النقطة صار مجري ساوا ثم اوناحدا فاصلاً بين المملكتين . واعاد لبولونيا قامينيك وبودوليا واوخرين واعطى البندقية المورة لحد ايكزامبلون وجزائر ايچين وسنت مور وستة قلاع من دالماشيا وراغوز وترك لروسيا قلعة ازاق التي اعادتها له بعد محاربة بروت والغى الضرائب عن ملوك النصاري وعقد معاهدة لخمس وعشرين سنة .

فكان هذا التقسيم الأول للدولة العثمانية واول ظهور روسيا في ميدان السياسة الاوروبية وفتحها طريق البحار الجنوبية . وصارت حدود الدولة العلية من جهة بولونيا دينستر ومن جهة المجر ساوا واونا وهوت عظمتها التي كان

---

[١] Slankamen
[٢] Zenta
[٣] Karlowitz

السلطان مراد الرابع يرفعها بيده القوية والوزراء الكبرليون يحافظون عليها بدماء ذكية حتى تخوف الناس قرب انقضاض بنيانها الفخيم ولم يعلموا ماله من الأساس المكين .

معاهدة بسارفجه

وفي اثناء محاربة وراثة اسبانيا ارسل لويس الرابع عشر سفيره ليخبر الباب العالي بأن الأوان قد آن للأنتقام من اعدائه واسترجاع ما اضاعه في معاهدة قارلوفجة حيث ان اسبانيا وايطاليا كانتا بيد آل بوربون والبندقية وبولونيا ملتزمتان الحياد ولا خوف حينئذٍ من تجدد الأتفاق المقدس ولكن الباب العالي ابى قبول هذه النصيحة فاستفادت روسيا من انهماك الغرب بأجمعه في محاربة وراثة اسبانيا واظهرت له عداءها فاحتقر الباب العالي اولا هذا العدو الجديد ولم يعبأ بتحصينه قلعة ازاق وتشييده المراكب وانزالها في البحر الاسود ولا اهتم ايضاً بمحاربته دولة السويد وانتصاره في بولناوا لأن الكوبرلي نعمان مع صداقته واستقامته وهمته العالية لم تكن له اصالة الرأي التي امتاز بها من تقدمه من هذه العائلة الكريمة ولذا لم يعر اذناً صاغية لرجاء شارل الثاني عشر ملك السويد ولا لطلب خانات التتار ونصيحة سفير فرنسا ولم يقطع علائقه الودية مع احد من الدول حيث ترآى له ان السلم للدولة اسلم . فكان موته رافعا لحاجز الحرب مع الدولة الروسية ومؤيداً لرأي الحزب السياسي المخالف له . فاعلن الحرب كما سيأتي تفصيله واسترجعت الدولة قلعة ازاق واسرعت بعقد الصلح مع روسيا رغبة في استرداد الموره . وبعد معاهدة فالكسين اعلنت الحرب على البندقية واستردت منها ما استولت عليه سابقا فاستمدت البندقية بالامبراطور شارل السادس حيث كان الضامن لتأييد معاهدة قارلوفجه وانتشب القتال بين الدولة العثمانية ودولة اوستريا

وانتصر البرنس اوجين في وقعة (بترواردين) (١) (١٧١٦) ومعركة بلغراد (١٧١٧) وعقدت معاهدة بساروفجة (٢) في ٢١ تموز سنة ١٧١٨ وبموجبها اضافت اوستريا اليها بلغراد والصرب وبنات وتمشوار وقسم من الافلاق الى الوتا وارجعت البندقية عما وراء الطونه وجعلت من بلاد الصرب زاوية داخلة في شبه جزيره البلقان ولم يعوض استرجاع الموره هذه الخسائر الجسيمة .

نقطة الانفصال بين زمني الادبار والاقبال

فهاتان المعاهدتان احدثتا في تاريخ الدولة العثمانية نقطة انفصال بين دورين مهمين احدهما دور الفتوح والاقبال وثانيهما دور الانحطاط . ففي الاول كانت الدولة تتجاوز على الدول الاوروبية . وفي الثاني اصبحت تدافع عن حقوقها امام الامم النصرانية وصارت بعض الدول تتداخل في شؤونها لوقاية الموازنة الاوروبية. فكانت مداخلة انكلتره وتوسطها في معاهدة قارلوفجه اول مداخلة اجنبية في مسائل الدولة العلية .

فلما رأت دول اوروبا انحطاط الاتراك ورجوعهم عن البلاد التي افتتحوها بسيوف بأسهم وعزائمهم نسوا ما هو مركوز في فطرتهم الاصلية من الشجاعة الغريزية والهمة العسكرية والغيرة والحمية وشدة المقاومة للاعداء والصبر على البلاء وحسبوا انهم يتمكنون بسهولة من اخراج الاسلام من شرق اوروبا كما اخرجوه سابقاً من غربيها فتساءلوا حينئذ عمن يخلف الاتراك في املاكهم ومن يستولي بعدهم على تلك البلاد الخصبة الواسعة المباركة التي افتتحها المسلمون عنوة من النصارى . وزادهم الحرص والطمع الى تقسيم هذه الاراضي الجسيمة لا بل الجواهر الثمينة حتى اوقع بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة.

في باديء الأمر كان الرقيب الاعظم للدولة العثمانية والخلافة الاسلامية

---

(1) (Peterwardein) (2) (Passarowitz)

دولة اوستريا الحائزة على امبراطورية المانيا وكان يتوهم الناس بأنها هي التي ستبتلع البلقان وتحل فيه محل العثمانيين حيث ارجعتهم الى ماوراء الطونة وجعلت لها من بلاد الصرب زاوية داخلة في شبه جزيرة البلقان. وظهر منذ ذاك الزمان في المذكرات السياسية فكر دفع التمساويين لجهة الشرق وهو الفكر الذي شرع البرنس بسمارك في تحقيقه في الأيام الاخيرة. فبينما كانت اوستريا منهمكة في حل المسئلة الشرقية حلا موافقاً لمنافعها الخاصة والتوسع في البلقان اذ برزت لها روسيا على مسرح السياسة الاوروبية بتولي بطرس الاكبر عليها.

تشكل روسيا وسلالة روريك

لايخفى ان الأقوام السلافية القاطنة في سهول روسيا كان يحكمها منذ القرن التاسع للميلاد امراء يقال لهم واريغ اصلهم من اسقاندیناویا هاجموا البلاد من الشمال وافتتحوا « سمولنسك » واتخذوا « كيف » عاصمة لهم. وأسس احدهم واسمه روريك اول سلالة ملكية في روسيا واوجد فيها دولة معظمة حاربت قيصر الروم وشنت الغارات على بيزانس وعلمت الاقوام السلافية الطعن والضرب والاصول العسكرية.

اعتناق الروس للمذهب الارثوذكسي

واقبل المبشرون بالانجيل المرسلون من القسطنطينية يبثون بين الروس التعاليم المسيحية فاقنعوا اولاً الاميرة « اولغا » ارملة الامير ايفور واتوا بها الى عاصمتهم فتعمدت فيها ووقف لها شبيناً الامبراطور قسطنطين — بورفيروجنيت وكانت اول من دخل جنة النصارى من الروس. ومع ذلك لم يقتد بها قومها الى ان تولى عليهم الامير ڤلاديمير وكان يشاهد الخطر الذي لحق بالروس بسبب عبادة الاوثان ويشعر بلزوم وضع دين جديد لها ونقلها من دور تعدد الآلهة الى

دور التوحيد فخطر له — كما يفعل اليابان اليوم — ان يمتحن الاديان ويميز بين صحيحها وفاسدها ويختار الأحسن منها وارسل رسله الى المسلمين والنصارى واليهود ليسمعوا مقالاتهم ويروا حركاتهم ويأتوه بأخبارهم وكانت الديانة الاولى منتشرة بين بلغار اولغا والثانية بين البولونيين والالمان والثالثة بين اقوام الخزر وهم اليهود القراؤون .

فلم يألف ڤلاديمير الدين المحمدي لأنه يأمر بالختان وينهى عن الخنزير والخمر المفرح لقلوب الروس ولا الدين الموسوي لان متبعيه اخرجوا من ديارهم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وتاهوا في الارض متفرقين. ولا الدين الكاثوليكي لتوهمه بانه خال عن الدبدبة والطنطنة . اما الرسل الذين ارسلهم الى القسطنطينية فعادوا اليه مندهشين مما شهدوه من فخامة آياصوفيا وزينتها وبهجة ملابس كهنتها ورونق الاحتفال المزدان بحضور القيصر وحاشيته والبطريك ورهبانيته والمطنطن بالاجراس والتراتيل الدينية والمعطر بالبخور ذي الرائحة الذكية واثرت جميع هذه المظاهر الخارجية بعقولهم البربرية فاطنبوا في قصصهم على ڤلاديمير وعددوا له ما شهدوه من محاسن دين الروم حتى اخذوا بمجامع قلبه وقال له اصحابه « لو لم تكن الديانة الرومية الاورثوذكسية احسن الديانات لما اعتنقتها جدتك المرحومة اولغا وهي اعقل الناس » . فأفحم ڤلاديمير بقوة هذه الادلة والبراهين ولكن اخذته الأنفة والعظمة من طلب الدخول في دين الروم والتعمد عندهم واراد ان يستولي اولاً على ديارهم ثم يأخذ دينهم غنيمة له فأعلن الحرب وتجاوز حدود مملكة الروم وافتتح مدينة « جيرسونيسوس» وارسل للقيصر يخطب اخته حنة وان رده هجم على القسطنطينية فاعطاه اياها على شريطة النصر وتصالحا فعاد ڤلاديمير الى « كيف » ومعه رهابين الروم الذين استأسرهم وادوات الكنائس التي سلبها في الحرب . وأسس كنيسة جامعة وضع فيها جميع ما اغتنمه

من الصور والصلبان والقناديل والاجراس والبسة الكهنوت وعصيهم المجوهرة والمباخر والمزاهر المتقنة الصنع من الذهب والفضة واصبح يسوق بني امته للأيمان بالسيف لا بالدعوة . فحطم الاصنام وعمد رعيته رغما عنها في مياه (دنيپر) . قال العلامة رامبو (١) « وكنت ترى اهل «كيف» رجالا ونساءً موالٍ وعبيداً شيوخاً وصبياناً يغطسون في مياه النهر المقدس الذي كان معظما عند الوثنيين ورهابين الروم واقفة مع ڤلاديمير على الساحل يرتلون لهم صلوات المعمودية .» وهكذا كان الحال في بقية البلاد الروسية فان اهلها حطموا اصنامهم ورموا بكبير آلهتهم (بيرون) الى النهر وهم عليه باكون نائحون وتعمدوا كرها اطاعة لامر الملك .

وكان ڤلاديمير بطلا في الوغى وقديسا في الكنيسة حيث كان من جهة يفتح البلاد ويخضع بالحرب اليه العباد ومن جهة اخرى يشيد الكنائس والاديرة ويعطي الصدقات للفقراء ويؤسس المدارس ويفرض على تلامذتها تعلم الكتاب المقدس المترجم للغة السلافية واباؤهم ينظرون اليهم بعيون الأسف والحسرة على تفريطهم في جانب آلهتهم الاقدمين . (٢)

وخلف ڤلاديمير ابنه ياروسلاف (٣) وكان عند الروس بمنزلة شارلمان عند الفرنساويين كما كان والده بمنزلة (قلوڤيس) الذي نشر الدين الكاثوليكي بين افراد الأمة الفرنساوية . فجمع ياروسلاف اليه الاقوام السلافية ونظم القوانين والشرائع وزوج بناته الثلاث بملوك نروج وفرنسا وهونغاريه وبني في «كيف» كنيسة على شكل آياصوفيا وجعل لها باباً من ذهب .

---

(١) هو المؤرخ الشهير وزير المعارف الفرنساوية حالا [١٨٩٧] ومن منتخبات آثاره تاريخ روسيا وقد حضرت درسه في الصوربون وفي مدرسة العلوم السياسية في باريس في سنتي ١٨٩٥ و ١٨٩٦ (٢) ذكر لنا هذه التفاصيل نستور وهو راهب (كيف) واول مؤرخ للروس (١٠٥٦-١١١٤) كتب تاريخه باللغة الروسية العامية وجمع فيه اخبار الشعوب السلافية ونشوء المملكة الروسية من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر . وقد ترجم تاليفه هذا الى الفرنساوية بقلم لويس باري ونشر في مجلدين سنة ١٨٣٤ (٣) Yaroslav توفي سنة ١٠٥٤

انقسام المملكة وظهور دولة القبجاق الاسلامية

ثم انقسمت البلاد بعده كما انقسمت بعد شارلمان الى اربع وستين امارة حكم فيها مدة عصرين مئتان وثلاث وتسعون اميرا وكان الشقاق سائدا بينهم فهجم عليهم الليتوعانيون من الغرب واستولوا على الاراضي الغربية بما فيه (كيف) وسمولنسك (١٣٨٦) وجمع آل جاجلون على رؤوسهم تاجي ليتوعاينه و بولونيا وشكلوا روسيا الليتوعانيه المؤلفة من عروق واديان مختلفة فحاربت مؤخرا روسيا الكبرى . وهجم المغول من الشرق بعد ما اغاروا تحت قيادة جنكيز خان على بخارى وتركستان سافكين الدماء ومخربين الديار واستولوا على روسيا الشرقية : وبعد محاربة قالقا (١) (١٢٢٤) وهب جنكيز خان جميع البلاد الواقعة في شمال بحر الخزر والبحر الاسود لابنه چوجي خان فأسس فيها دولة (قبچاق) (٢) وبعد وفاته انقسمت تلك المملكة الواسعة بين اولاده الخمسة .

فاخذ ابنه الأكبر اورده خان القسم الشرقي من المملكة وسماه آق اردو اي المعسكر الابيض ثم استولى خلفاؤه على القسم الغربي منها بعد انقراض سلالة باتو وتلقبوا بخانات استراخان . وأخذ ابنه الثاني طوقه تيمور خان بلغاريا العظمى وهي القسم الشرقي من مملكة قبچاق وأسس خانات (قازان وقازيموف والقرم) . وأخذ ابنه الثالث المسمى شيبان خان قبائل قازاق القيرقيز القاطنين اذ ذاك في الصحراء الواقعة شمالي بحر الخزر . ثم هاجروا الى خيوه وبخارى . وأخذ ابنه الرابع تيقال خان قبائل پچنيك وأسس خانات سيبريا . واخذ ابنه الخامس باتوخان القسم الغربي من مملكة قبچاق ودعاه كوك اوردو اي المعسكر الأزرق وصار خليفة في الحقيقة لچوجي خان ورئيساً على جميع قبائل المغول وخاناتها ومد حكمه ونفوذه لجهة الغرب فافتتح جميع روسيا وجعل عاصمة مملكته او باالحري مركز

(١) Kalka (٢) Kipchak

معسكره مدينة سراي الواقعة على مثلث (دلتا) نهر ڤولغا وتلقب بخان عرض الذهب (خان زر اردو) . وكان اشد خانات المغول بأساً واعظمهم سلطاناً وكانت اعيان مملكته وحاشيتهم وامراء عساكره وبطانتهم من عرق مغولي واما بقية افراد العساكر واصناف الاهالي فمن عرق تاتاري وتركي ومن اصول مختلفة . وكان المغول عبدة اوثان او بوذيين ثم دخلوا في الاسلام بعد ظهوره واستعملوا اللغة العربية عوضاً عن المغولية في مراسلاتهم وحججهم وتواريخهم وعلى نقودهم ومسكوكاتهم .

ثم ان الاقوام السلافية وقت الاقوام الجرمانية وبقية سكان اوربا الغربية من هجوم المغول وتلقت صدماتهم الشديدة بالصبر واستدام القتال بينهما مدة عصرين تقريباً فهلك به خلق كثير وعدد كبير من اشراف روسيا وبولونيا وفتحت موسكو ونهبت « كيف » واصبحت روسيا بما فيه سمولنسك ونوڤغرود خاضعة لحكم المغول .

ظهور امارة موسكو

ولما كان من احكام الشريعة الاسلامية اعطاء الحرية التامة لجميع الكتابيين الخاضعين لسلطانها اكتفى خانات القپچاق من الروس بأخذ الجزية والخراج والهدايا الثمينة وابقوهم في اراضيهم تحت حكم امرائهم على دينهم وعوائدهم الملية . فاجتمع حول مدينة موسكو التي أسسها في الجيل الثاني عشر (١) (جيورج دولغوروكي) (٢) قوم قوي صبور مجد حكم فيه سلالة من الامراء الماهرين الغيورين المقدمين . نقل استاذنا العلامة رامبو : « ان امراء موسكو العظام كانوا يحكمون بالحيل

(١) سنة ١١٤٧

(٢) Yuri Dolgoruki

والدسائس والرشوة والتزلف للخانات وكانوا يتصرفون مع اقرانهم من الامراء بالغدر والخيانة والتجسس والقتل وكانوا عند الخانات بمثابة « الجواسيس وجباة الأموال » ولكنهم اوجدوا روسيا جديدة . »

ثم ان جيورج دانيلوفيتچ وايوان كاليته(١) ١٣٢٥ ـ ١٣٤١ ومن خلفهما من امراء موسكو وسعوا مملكتهم من اراضي الامارات المجاورة والمحادة لهم كأمارة تفر وريازان وسوسدالي . وفي سنة ١٣٥٩ انقرضت سلالة باتو وتنازع مملكة القپچاق سلالات شيبان واورده وتوقه تيمور مدة عشرين سنه وقد وصف المؤرخون زمن حكومتهم بعصر الرقابة بين العائلات . ثم استقر الملك سنة ١٣٨٠ في سلالة اورده وجلس على عرش مملكة القپچاق السلطان طوقتامش (٢) قائد المعسكر الابيض (اق اوردو) . وفي تلك السنة غزا القائد المغولي « ماماي » اراضي موسكو فصده عنها اميرها الكبير «ديمتري دونسكوي » «١٣٦٢ — ١٣٨٩ »(٣)وغلبه في وقعة «قوليقوفو»(٤) فكبر ذلك على طوقتامش واعدم ماماي ولحق بالروس فشتت شملهم ونهب مدينتهم المقدسة واحرقها وداس بخيله ورجله جميع روسيا وعقب ذلك ظهور تيمورلنك وجوازه بما وراء القفقاس فكان هجوم المغول بلاءً مبرماً على الروس كما كان في عهد جنكيز خان.

ثم انتقل الملك لفرع آخر من سلالة اورده المذكورة وكان بقبولاد خان رأس ذلك الفرع الجديد . ومن ذاك التاريخ اخذت دولة القپچاق في الانحطاط والتشتت والانقسام بين الخانات .

---

[١] Ivan Kalita
[٢] Toktamish
[٣] Dimitri Donskoi
[٤] Kulikovo

ايوان الكبير وانقراض دولة القبجاق

ولما خلف ايوان الثالث الكبير سنة « ١٤٦٢ — ١٥٠٥ » (١) والده واسيلي الاعمى على سرير امارة موسكو جمع شتات روسيا واخضع جمهورية نوفقرود وضم اليه امارات تفر وروستوف ويارسلاف وارجع دولة القبچاق لاراضيها الأصلية الواقعة بين نهر ڤولغا وجبال اورال ورفض دفع الجزية لها واسر خانها السيد احمد الثاني سنة ١٤٨١ وقاده الى بولونيا حيث مات بها سنة ١٥٠٢ وكان آخر خانات هذه الدولة المعظمة الأسلامية التي ابتدأت روسيا تسترطها . ثم وجه وجهه نحو الغرب واخذ من الليتوعانيين مدائن روسيا الغربية . فبانقراض دولة البقچاق بقيت استراخان وقازان وقازيموف والقرم متفرقة مستضعفة لاجامع لها . فاستولت روسيا اولاً على قازان سنة ١٥٥٢ . وبعد سنتين استولت على استراخان الواقعة بين ڤولغا والقفقاس . واما تاتار نوغاي القاطنين على ساحل البحر الاسود ونهر دينستر فلم يلحقوا بروسيا الا في القرن الثامن عشر . وحافظت القرم على استقلالها لسنة ١٧٨٣ كما سيأتي تفصيله .

زواج ايوان الكبير بصوفيه باليؤلوغ

ثم ان ايوان الثالث الكبير تزوج باميرة بيزانطية فكان لزواجه شأن عظيم ودخل كبير في الأحوال السياسية . وبيان ذلك انه لما فتحت القسطنطينية التجأ توما باليؤلوغ اخ القيصر الاخير قسطنطين (٢) لبلاط البابا بولص الثاني ومات فيه عن بنت اسمها صوفيه . فبينما كان البابا يفتش لها عن زوج اشار عليه المطران

---

(١) Ivan III

(٢) Constantine Palaeologus

بيساريون الذي كان في جملة من التجأ لحبر الكنيسة الكاثوليكية من الروم الأورثوذكس بعرض يدها على امير موسكو الكبير . فارسل اليه البابا سفارة من الروم الملتجئين اليه وفيهم اثنان من اقرباء فريازيني ناظر المالية في موسكو فسر بذلك ايوان اثالث واعوانه وشكروا آلهم الذي بعث لهم بعروس (من فرع الشجرة الامبراطورية التي تظل عالم النصرانية الأورثوذكسية بظلها الوارف).

فجهز البابا الاميرة صوفيه احسن جهاز وزفها الى ايوان وكان له بذلك مقصدان احدهما اضرام الحرب الصليبية على المسلمين وثانيهما توحيد الكنيستين الشرقية والغربية . وذهبت صوفيه من رومية الى لوبك ومنها بحراً الى ريفل واستقبلت بغاية الاحتفاء والتعظيم في بسكوف ونوفغرود وبقية المدن التابعة لموسكو وتزوجت بايوان الثالث وادخلت معها لقصره اصول التشريفات والمراسم المتبعة في بيزانس . وكان لها على ايوان نفوذ عظيم فعلمته التسلط والاستبداد واغرته على التخلص من نير المغول واخضاعهم اليه بقولها له على الدوام « هل ابقى زماناً طويلاً اسيرة خانات التاتار ؟ » . مع ان الروس كانوا قد الفوا العبودية والخضوع والانقياد للمغول . وذهب مع صوفيه خلق كثير من الملتجئين لرومية ثم صار الروم واليونان يهاجرون الى موسكو من القسطنطينية والموره وكان فيهم ارباب علم ومعارف واصحاب حرف وصنائع فتقلبوا في مناصب الدولة والسياسة والقوا الخطب والدروس ونظموا المملكة بعلومهم الهندسية والرياضية واستصحبوا معهم الكتب اليونانية التي ورثوها عن المدنية القديمة واسسوا بها المكتبة العظيمة الموجودة اليوم في موسكو .

لقب القيصر وشعار النسر البيزانطي

فادعى ايوان الثالث بميراث قياصرة الروم والرومان وتلقب بالقيصر واتخذ

النسر البيزانطي ذي الرأسين شعاراً له وتوهم قيام عاصمته مقام بيزانس كما قامت بيزانس سابقاً مقام رومية .

وسنشاهد مطرنة موسكو تراقب بطركية القسطنطينية الحائزة على رئاسة العالم الأورثوذكسي الروحية والتابعة للجأ الخلافة الاسلامية وتستقل عنها بالرئاسة الدينية وتسلم زمام تلك الرئاسة للقيصر وتستميل بمواعظها لا بل بصلاتها وعطاياها النصارى الأورثوذكس التابعين للدولة العلية. فتزرع في البلاد العثمانية تخم الفساد وتحض على الاخذ بثار قياصرة الروم من خلفاء المسلمين .

خلفاء ايوان

وخلف ايوان الثالث ابنه واسيل ايڤانوڤيتش (١) (١٥٠٥ — ١٥٣٣) فاستمر على توسيع الحدود الروسية وفتح الممالك المجاورة فضم اليه بسكوف وما بقي من ريازان وسيرڤيسكى ونوڤغرود وسمولنسك وارسل سفرائه للسلطان سليم وسليمان وللبابا ليون العاشر وكليمان السابع وللأمبراطور ماكسمليان وشارلكان والملك كوستاو وازه ورحب بالعلماء وذوي المعارف فزاد غنى كرملين بالكتب الخطية والمؤلفات الجليلة .

ولما خلفه ايوان المهول (٢) (١٥٣٣ — ١٥٨٤) تحت وصاية والدته الليتوعانية هيلانه غلينسقه كانت وحدة روسيا قد اكملت تقريباً ولكنها تزعزعت بوفاة هذه المرأة العاقلة المدبرة وشق الامراء عصا الطاعة فاضطر ايوان لمحاربتهم ولم يكن له من العمر اكثر من ثلاث عشرة سنة . فبعد اخضاعهم تلقب بالقيصر وافتتح قازان واستراخان واستقبل في قصره القبطان الانكليزي شانسيلور(٣) الذي مهد طريق

---

(١) Basil III
(٢) Ivan the Terrible
(٣) Richard Chancellor

البحر الابيض وكان قد احضر له تحارير من ماري تيودور . ثم ان ايوان المهول امضى معاهدة تجارية مع اليزابيت ملكة الانكليز واعطى امتيازاً الى غريغوري ستروغونوف واولاده من بعده بجميع الاراضي الواسعة الكائنة على نهري ڤولغا واورال ورخص لهم باستعمار ماوراء جبال اورال بصورة صلحية في الظاهر حربية في الباطن وبالاستيلاء على التاتار . وهكذا دخلت سبيريا في يد قياصرة موسكو. وتزوج ايوان المهول بانستاسيا رومانوف والقى الرعب في قلوب امراء البلاد واشرافها وطغى بنيرانه الحامية مقاوماتهم له . وكان مع ظلمه وطغيانه محباً للعلوم والفنون والصنائع النفيسة فأمر ببناء الهياكل والقصور التي لاتعد ولا تحصى واعظم تلك المباني قصر كرملين الشهير في موسكو وفيه يتوج القياصرة الى يومنا هذا . « فاصبحت موسكو بما احدث فيها من المباني الجسيمة قابلة لأن تكون عاصمة مملكة عظيمة وصارت بهياكلها مدينة مقدسة تشتمل على اربعين في اربعين كنيسة ولها قبب لاتحصى بالوان الذهب والفضة والزبرجد فكان حجاج الروس يحيونها عن بعد وعند ما يشرفون عليها يخرون لها ساجدين . . » . وانستاسيا هذه من عائلة رومانوف الشهيرة التي تولت زمام موسكو من سنة ١٦١٣ الى ١٧٦٢ وأصل هذه العائلة من بروسيا استوطنت موسكو في القرن الرابع عشر وتزوج احدهم وهو فيئدور نيكيتش رومانوف بنت القيصر فيئودور الاول الذي مات سنة ١٥٩٨ . ثم حبسه موريس في دير وعاد فاطلق سبيله في زمن ديمتري وعين مطراناً لروستوف ثم نصب الأهالي ابنه ميشيل رومانوف قيصراً سنة ١٦١٣ .

كيفية انتقال الملك الى سلالة رومانوف

وخلف ايوان المهول فيئودور ايوانوفيچ (١) وكان زاهداً متورعاً ولذا قبض الأشراف على زمام المملكة وصار اخو امرأته بوريس غودونوف (٢) هو الآمر الناهي في الحكومة فأحدث المطرنة الروسية المستقلة واستمال اليه حزب الاكليروس وصغار الأشراف وقتل ديمتري اخ القيصر فيئودور وولي عهده ليتولى مكانه فهاج الشعب وماج وادعى كثيرون كذباً بأنهم ديمتري المقتول وصدقهم الناس. وتداخلت السويد في المملكة وقبض البولونيون على زمام كرملين واعلنوا ابن ملكهم ڤلادسلاس (٣) قيصراً على موسكو فاشتد حنق الاهالي لذلك ونشبت الحرب الأهلية تحت قيادة البرنس بوتارسكي (٤) وكانت اشبه بالحرب الصليبية منها بالأهلية حيث كانت الرهبان والمطارنة بصلبانها والبستها الدينية تتقدم العساكر وتحرضهم على القتال وعلى طرد البولونيين من قصر كرملين. فانتصر الحزب الوطني واجتمع في قصر كرملين المذكور مجلس عمومي ملي فقرر اولاً ابعاد كل من ولته الأجانب ثم انتخب باتفاق الآراء ابن البطريرك فيلاريت (٥) واسمه «ميشل رومانوف» (٦) قيصراً لموسكو. وكان لقب رومانوف يذكر الناس بايوان الرابع المهول الذي صاهر هذه العائلة ويرمز لهم عن الاتحاد والصلح والنظام.

---

(١) اوئيودور (Theodore (Fcodor سنة ١٥٨٤ — ١٥٩٨

(٢) Boris Vodunog

(٣) Wladislous هو ابن سجسمند الثالث (Sigismund III.) ملك بولونيا

(٤) Prince Pozharski ومن قواد الحرب ايضاً قصاب اسمه منين (Minin)

(٥) Philaret (٦) Michel Romanov سنة ١٦١٣-١٦٤٥

سلالة رومانوف

فأخذت روسيا تنتعش في زمن هذه السلالة الجديدة وتجمع قواها لتخرج من طور الانزواء والهمجية الى مصاف الدول المعظمة الاوروبية ولم ميشيل رومانوف شعث المملكة واصلح ما اختل من احوالها وعقد الصلح مع السويد واتم الحرب مع البولونيين وارسل سفراءه لجاك الاول ولويس الثالث عشر وفتح ابواب مملكته للعلماء والتجار والأجانب وأسس في موسكو اكاديمية اي جمعية علمية لدرس اللغة اليونانية واللاتينية وكان نفوذ المدنية الغربية يدخل روسيا شيئاً فشيئاً . .

وخلف ميشيل لابنه الكسيس ميخايلوفيچ (١) مملكة مسخرة متمتعة في بحبوحة الأمن والسلم غير ان رئيس القوزاق استنصر بالكسيس المشار اليه على البولونيين فنصره وأعلن الحرب عليهم وافتتح منهم اوخرين (٢) وكيف وروسيا البيضاء وسمولنسك « معاهدة اندروسوڤو سنة ١٦٦٧ » (٣) وبعد ان تخلص القوزاق من حكم البولونيين صعب عليهم الخضوع للروس فأعلنوا العصيان وتجمهر الفلاحون والاصناف تحت قيادة ستانكورازين احد رؤساء الدون واستولوا على المدائن الواقعة على نهر ڤولغا وحركوا المزارعين على اسيادهم فصال عليهم الجنرال الروسي براتنسكي وغلبهم في سيمبيرسك واعدم رئيس العصاة في موسكو سنة ١٦٧١ . ولما شرع الكسيس في عمل الاصلاحات الدينية وتعديل الكتب المقدسة وشرحها بما يوافق الزمان بمساعدة البطريق نيقون (٤) له خالفه

---

[١] Alexius (سنة ١٦٤٥-١٦٧٦)
[٢] Ukraine
[٣] Andrussovo
[٤] Nikon

المتعصبون في الدين المعروفون باسم « راسكول » وحدثت اختلافات كثيرة في الكنيسة الروسية وافترق الناس الى عدة مذاهب وفرق . وعقد القيصر المشار اليه مع الدول الغربية معاهدات تجارية وأتفاقات وبعث بسفراءه الى عواصم الممالك الاوروبية .

بطرس الاكبر

ولم يغير خلفه فيئودور الكسيس (١) شيئاً في الاصلاحات الجديدة بل ترك تنظيم البلاد واكمال الاصلاحات لولده وبكر امرأته الثانية الا وهو بطرس الاكبر الاول محيي الدولة الروسية وجامع كلمتها وناشر لواء عظمتها في الآفاق (٢)

ولما تولى هذا القيصر الكبير الملك كان صغير السن ولذا قبضت اخته صوفية (٣) على زمام الامور وتحزب لها امراء الروس والمتعصبون في الدين « راسكول » والعساكر الملية « استرليج » (٤) ووقفوا حاجزاً منيعاً امام الاصلاحات الجديدة فاتخذ بطرس له حزباً من الاجانب وذوي الافكار الثاقبة والعلوم النافعة وشكل فرقة من الصبيان وسلحهم بالعصي وأظهر للعالم استعداده العسكري ثم استمال اليه العساكر الملية « استرليج » وانتصر على ما في قصر كرملين من البيزانطيين واصحاب الفكر القديم . وبعد ان خلص المملكة من اعداء « النظام والنجاح » صرف سني عمره — كما قال — « في عمل امة منظمة من اسراب الحيوانات » وصاغ من روسيا الاسيوية الخامدة البربرية دولة معظمة اوروبية . ومن ثم اخذت

---

(١) وكان ضعيف البنية ومات ولم يخلف احداً . وخلفه اخوه ايوان الخامس [١٦٨٢-١٦٨٩] وكان معتوهاً . نودي به قيصراً مع اخيه بطرس الاكبر وتولت الحكم بالوكالة اختهما صوفية مدة سبع سنوات . Theodore III سنة [١٦٧٦-١٦٨٢]

(٢) Peter the Great [١٦٨٩-١٧٢٥]

(٣) Sophia Alexeyevna [١٦٨٢-١٦٨٦]

(٤) Stryeltsi

روسيا تتداخل في شؤون اوروبا وتهتم لمسائلها السياسية لتجعل لها نفوذاً وتأخذ منها نصيباً وساقها للشرق سببان :

اطماع روسيا

(١) مادي سياسي

(٢) معنوي حسي

فالأول هو الافتقار الى الثغور البحرية وذلك ان روسيا لم يمكنها الدخول في الحضارة الا بالتقرب من الغرب ومخالطة الشعوب الغربية ولا يتيسر لها ذلك الا باستملاك الثغور البحرية وتوسيع المواصلات التجارية والحال ان دولة روسيا ظهرت في وسط سهول واسعة منعزلة عن ممالك اوربا ومحاطة من الشرق والجنوب بالاقوام التاتارية وليس لها الا فرضة واحدة في البحر الأبيض الذي لايذوب جموده الا اياماً معدودة في السنة .

فللخروج من العزلة التي أمست فيها اقتضى لها أن تتقدم في الشمال نحو البحر الأبيض وفي الشمال الغربي نحو بحر البلطيك وفي الجنوب نحو البحر الأسود ولكن كان الثلج وجمود المياه مستوليين على الأول . والسويد ولهستان « بولونيا » مستوليتين على الثاني . والدولة العلية مستولية على الثالث فان اقوام التاتار المسلمين المقيمين في القرم وعلى السواحل الشمالية للبحر الأسود وان كانوا مختاري الادارة الا انهم كانوا تابعين للخلافة الاسلامية والسلطان هو الذي يعين خاناتهم . وعدا عن ذلك فالدولة العلية اقامت على سواحل البحر الأسود قلاعا حصينة مثل قازاق واهرهوف واكرمان واسماعيل وكيلي وسدت على روسيا الطريق البحرية . على أن البحر الأسود بحر اسلامي مقفول من جميع جهاته . ولا يتصل بغيره من البحار الا بأبواب ضيقة مفاتيحها بيد العثمانيين شأن بحر البلطيك مع السويد ولهستان

« بولونيا » في ذلك العصر . وهكذا كان حظ روسيا فانها لم تستطع الوصول الى البحار الكبيرة الا بالمرور من المجاري الضيقة فهي بهذه الحالة اشبه بحيوان عظيم الجثة له رئة كبيرة صالحة لاستحصال مايقتضي لحياته من اوكسجين الهواء وليس له الا مجريان للتنفس في غاية الضيق ولذا يكاد يختنق ويضرب ذات اليمين وذات الشمال ليفتح له منفذاً . فيرى اذاً ان موقع البلاد الروسية هو عكس موقع بلاد الدولة العثمانية التي هي سيدة البحار والقابضة على مفاتيح ابوابها .

واما السبب الثاني فهو الادعاء بميراث قياصرة الروم وذلك كما تقدم بيانه . ان الروس اعتنقوا الدين المسيحي الأرثوذكسي وعمدهم رهبان الروم فكان بينهم وبين الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية كاليونان والرومان والصرب والبلغار والجبل الأسود اتحاد في الدين والمذهب واشتراك بعضهم في الجنسية السلافية. وتزوج امير موسكو ايوان الثالث بالقيصرة الرومية صوفية باليؤلوغ وتمدن بمدنية بيزانس وتلقب بالقيصر واتخذ النسر ذا الرأسين شعاراً له وادعى بانه خلف قياصرة الروم في الرئاسة الروحية على الأرثوذكس ولذا اقام نفسه مقام المنتقم لهم والآخذ بثارهم من فاتحي القسطنطينية . فالأقوام السلافية تحسب اعلان الحرب على العثمانيين واعادة الصليب على قبة ايا صوفيا امراً محتوماً ديناً « وجنسية » . وفكر الاستيلاء على دار الخلافة المحمية ولو ترآءى للسياسيين مشوشاً وغير جلي في السياسة الروسية الا انه ظهر في ارادة الشعوب السلافية وحسهم كالشمس في رابعة النهار ووضعت العساكر الروسية هذا الفكر نصب اعينها وزادها شوقاً الى تحقيقه وحرصاً على اخراجه لحيز الوجود ، تهليل حجاج الروس وركوعهم وسجودهم عند رؤية قبة ايا صوفيا وهم مارين على مراكبهم في البوسفور وذاهبين في كل سنة افواجاً افواجاً لزيارة القبر المقدس وارض الميعاد . والخلاصة ان افكار الشعوب السلافية لم تزل ولن تزل محلقة في جو الاوهام التي

تتخيلها لأخذ القسطنطينية والحلول محل قياصرة الروم .

اخذ قلعة ازاق (١)

فأرسل بطرس الاكبر عساكره الى قلعة ازاق ولم يكن بها الا شرذمة قليلة من العساكر العثمانية . فبعد ان قاوموا مقاومة الابطال الاشداء غلبتهم الكثرة فسلموا القلعه لأعدائهم . فكان لهذا الفتح تأثير كبير وفرح عام في جميع روسيا لكونه اول انتصار للروس على العثمانيين مما ذكرهم بفتح قازان واستراخان كما كان لهذا التأثير والفرح صدي عظيم في اوروبا لانه انتصار مسيحي على الاسلام . وطمس التعصب الديني على ابصار الأوروبيين فلم يدركوا ما ستؤول اليه مصالح بلادهم بعد استفحال الدولة الروسية وصرخ القوم في وارسوفا ليحي القيصر ولم يفقهوا ما سيذيقهم اياه من تشتيت ملكهم وادخالهم في طاعته .

فكانت قلعه ازاق بمثابة نافذة للمملكة الروسية على البحر المتوسط كما صارت بطرسبرج نافذة لها على الأقيانوس ونظر الروس من هاتين النافذتين الى حركة العالم المتمدن

وارسل بطرس الاكبر يدعو اليه الاقوام الاورثوذكسية الخاضعة للدولة العثمانية في شبه جزيرة البلقان كالصرب والرومان والبلغار واليونان ويحرضهم على شق عصا الطاعة على متبوعهم المفخم ثم سافر لغرب اوروبا وتلقى فيها دروس الحضارة عن اهلها وانكب خاصة على درس انشاء السفن وسلوك البحار وكتب وهو في هولاندا الى رئيس الاساقفة ادرين يقول له : (نحن نسعى في تحصيل فن الملاحة حتى اذا ما اتقناه ورجعنا لروسيا نظفر على اعداء المسيح ونخلص النصاري الذين هم هناك وهذا مالا انقطع عن الرغبة فيه لاخر نفس من حياتي .) وبعد رجوعه من اوروبا الغى عساكر «استرليج» وسكن عصيان قازاق الدون

---

[١] Azov وهي واقعة على الشاطئ الشرقي الشمالي من بحر ازوف

واقام على شارل الثاني عشر ملك السويد حرباً عواناً غلب فيه مراراً ولكنه كان يأخذ من كل إنكسار درس عبرة .

وبعد انتصاره في معركة بولتاڤا العظيمة سنة ١٧٠٩ اجلس اغستوس الثاني على سرير « لهستان » بولونيا وصار حامياً له . وتمم فتح ايالة انيكرى وشاد فيها عاصمته المقدسة (سان بطرس برج)(١) ثم وجه اهتمامه نحو الجنوب وظن انه يتمكن من الدولة العلية بأغراء تبعتها الارثوذكس على العصيان وبعدم تعرض دول اوروبا له لانشغالهم اذ ذاك في محاربة وراثة اسبانيا فلم تهتم به الدولة في بادىء الأمر وامهلته مدة حياة وزيرها الكوبرلي نعمان وبعد وفاته اعلنت الحرب عليه اجابة لرجاء ملك السويد وتوسل خان التاتار وتحريض سفير فرنسا فاحدقت به العساكر السلطانية وهو على شاطىء بروت حتى كاد يستأسر لولا ان امرأته كاترينه ذات العقل والجمال جمعت حليها وترامت بها على الصدر الاعظم والسردار الاكرام بالطه جي محمد باشا فقبلها وتقبل منها هديتها احسن قبول ولم يفكر بعواقب الامور وعقد مع زوجها معاهدة بروت او فالكسين واخذ عليه ميثاقاً بأن لايضر شارل الثاني عشر عند رجوعه لمالكه ولا يتداخل بشؤون «لهستان» بولونيا ولا بسياستها الداخلية .

فبينما كان بطرس هاجماً على الشرق لتحرير العالم الأرثوذكسي سلم نفسه في ميدان الحرب والقتال بدون طعن ولا جدال واعاد قلعة ازاق ورفع اسطوله من البحر الأسود بعد ان صرف في عمارته اموالاً كثيرةً واتعاباً كبيرة ولم يفد روسيا غير اراءتها طريق البحر واهمية انشاء السفن فيه كما انه بتحريضه الشعوب الأرثوذكسية على العصيان والالتجاء لروسيا ترك لمن ملك بعده رابطة قوية بينهم وبين الرعايا من طائفة الروم فاقت الرابطة الممكن ايجادها بين اوستريا وبين الرعايا من طائفة اللاتين .

---

[١] سنة ١٧١١ . ترك لقب القيصر ونادى بنفسه امبراطوراً .

اشتراك السويد وبولونيا والدولة العلية في المنافع

فيتضح من الوقائع المتقدمة ان سياسة روسيا وقوتها الحربية كانت متجهة ضد الدول الثلاث المكتنفة بها . اما السويد فلاستيلائها على بحر البلطيك ومنعها الروس عن الوصول للبحر المحيط واما بولونيا فلوجودها حاجزاً بين روسيا واوروبا الغربية التي هي مركز المعارف والحضارة واما الدولة العثمانية فلاستيلائها على البحر الأسود وجعله بحيرة اسلامية .

ففتح بطرس بحر البلطيك واضر كثيراً بالسويد وعقد معها بعد وفاة شارل الثاني عشر معاهده نيستاد (١) فكانت بيده مستنداً جعله يتصرف بالأيالات البلطيكية وهي ليفونيا واستونيا واينكري وقاريلي وفينلاند الجنوبية وساق لهستان اي بولونيا للانقراض بوضعها تحت نفوذه السياسي وادخالها في اشراكه « الديپلوماتيكية » فأحست هاتان الدولتان بلزوم الالتجاء للدولة العثمانية والاستمداد منها رغماً عن تعصبها الديني حيث كانت منافع الدول الثلاث على خطوط متوازية متجهة معاً ضد عدوتهن المشتركة الطامعة في املاكهن ومحو استقلالهن والتسلط عليهن . فبعد محاربة (بولتاڤا) التجأ ملك السويد لأراضي الدولة العلية واستجار بها فأجارته فكان بينهما اتفاق معنوي وبعد ان أذاق البلطهجي بطرس الاكبر في بروت كأساً لم ينس مرارته طول حياته حظر عليه المداخلة في شؤون بولونيا وحركاتها الداخلية فعرفت بولونيا حينئذٍ قيمة الدولة العثمانية واشتراك منافعهما السياسية ولعلها ندمت على مافرط به اميرها جان سوبيسكي في جانب الاتراك عند محاصرتهم فينا .

ومن ثم كانت منافع السويد وبولونيا مرتبطة بمنافع الدولة العلية لمشابهتها

---

[١] Neystad في ١٠ ايلول سنة ١٧٢١

لها وكان بين الدول الثلاث اتفاق معنوي على رد مطامع روسيا بدون ان يكون بينهن معاهدة خطية .

موانع اتفاق روسيا مع فرنسا

اما روسيا فبعد ان فتحت بالسيف طريقاً للممالك المتمدنة الغربية شعرت بلزوم عقد اتفاق مع احدى الدول المعظمة للمحافظة على فتوحاتها من جهة وللمداخلة في شؤون اوروبا وسياستها من جهة اخرى . فان بطرس الاكبر بعد ما ادخل نفسه جبراً بين ملوك اوروبا لم يرج ان يتبوأ في مؤتمرهم مقعداً ولا يرفع فيه صوتاً الا وهو مستند على محبة صاحب معتبر يتخذه منهم . فمن يا ترى ذاك الصاحب المعتبر ؟ فلا يمكن ان يكون بالطبع لابروسيا لانها لم تتم تشكيلها بعد ولا دولة اخرى من دول المانيا الثانوية لان ذاك الصاحب ينبغي ان يكون من الدول المعظمة القوية . وكذا لا يمكن ان يكون انكلترة لعدم ميل بطرس اليها ومحبته لها ولا اسبانيا لعدم معرفته بها . ولم يراجع فينا في بادىء الامر لانه حكم بان منافع روسيا تضاد منافع اوستريا فلم يبق امامه غير فرنسا ولذا سعى بالتقرب اليها واعلن مرارا رغبته في زيارة باريس حينما زار اوروبا فلم يهتم به لويس الرابع عشر ولا التفت اليه وحوله عن رغبته في الحضور لباريس ومع ذلك لم يثن بطرس عما عزم عليه بل دخل هذه المدينة التي هي عاصمة القارة الاوروبية ومركز الحضارة والانسانية في عهد نيابة الملك لويس الخامس عشر ودرس قوى فرنسا الانتاجية واطلع على علومها ومعارفها العقلية . وبوصوله باريس نزل عن راحلته باب قصر التويلري وانتظر في غرفة بواب نائب الملك حتى حضر واحضر له الملك الصغير فاخذه بين يديه ورفعه اليه وقبله مرارا بحنان لامزيد عليه . ثم تداول مع الوزراء في اهم المسائل السياسية وحاول اقناعهم بلزوم ترك الاتفاق مع الدول الثلاث وهم السويد وبولونيا والدولة العثمانية لضعفهن وانحطاطهن والتعويض

عنهن بدولة اقوى وانفع منهن لمصالح الدولة الفرنساوية تجاه الامبراطورية الالمانية فلم تغتر فرنسا باقاويله وبقيت مستمرة على رأيها القديم في موالاة اصحابها . ثم عرض بطرس ابنته اليزابيث على الدوق دوشارتر وانتظر مدة اجابة طلبه فلم يجب لاسلبا ولا ايجابا . ولما قبضت كاترينه على كرة الامبراطورية وصولجانها بعد وفاة زوجها سعت ايضا في تزويج ابنتها اليزابيث المذكورة بلويس الخامس عشر كما سعت هي ايضا بعدان خلفت والدتها في تقريب المملكتين من بعضهما فلم يثمر مسعاها ولا تحققت امانيهما .

اما الاسباب التي حالت دون اتفاق هاتين الدولتين فيمكن حصرها في اربعة عائلية وسياسية واقتصادية ودينية :

فالاولى هي كون آل بوربون عريقين في الحسب والنسب وافتخارهم بقدم سلالتهم ومجد اسلافهم ونظرهم لآل رومانوف نظر الدخيل على الملك لكون جدهم لاينتسب لفخذ ملوكي وانما هو بطريق موسكو واحد اعيانها ولذا كان يلوح لملوك فرنسا ان الاتفاق مع قياصرة الروس ومعاملتهم بالمثل حطة في قدرهم واعتبارهم .

والثانية هي أن اساس السياسة الفرنساوية التحري فيما وراء المانيا على حليف لها يكون بينه وبين الامبراطورية الالمانية تباين وطلب ذلك في استوقهولم ووارسوفا واستانبول ولذا كان كوستاف ادولف كالعسكري المستأجر عند روشيليه وكانت فرنسا تتداخل دائما في شؤون بولونيا وتساعدها على تأييد شوكتها وتوطيد سلطتها ومع ذلك لم تكن واحدة من هاتين الدولتين في حالة تستطيع معها تهديد اوستريا والزامها حدها عند اللزوم ولذا احست ملوك فرنسا بلزوم الالتجاء للدولة العثمانية والاتفاق مع الخلافة الاسلامية منذ عهد فرنسوا الاول .

وعدا هذا فحكومة القيصر كانت دخلت المدرسة الالمانية لتدرس فيها اصول السياسة والادارة والحرب فاثر عليها نفوذ معلميها حتى جعلها تضع نقطة اعتمادها

تارة في برلين وطورا في فينا ولا تميل للفرنساويين الا بمقدار ما تتلقاه عنهم من العلوم العالية والافكار الجديدة . وكانت تميز بين ميلها للفرنساويين واتفاقها مع الالمان الذين اخذت عنهم الحضارة الاوروبية .

واما الاسباب الثالثة فهي أن عروس الشرق التي هي مشتهاة الدولة الروسية كانت بيعة (١) الدولة الفرنساوية وتشتري منها جميع مايلزمها من المفروش والملبوس فاجتهدت بحفظ هذه البيعة وابقاءها على ما كانت عليه . وكانت البلاد المشرقية سوقا واسعة محصورة تجارتها بيد الفرنساويين ولذا كانوا يرون من صوالحهم ابعاد كل خطر عنها .

والاسباب الرابعة الدينية هي أن الكنيسة الكاثوليكية جعلت الدولة الفرنساوية بنتها البكر ولذا قامت فرنسا تنادي بحماية اللاتين في الشرق وتذب عن حقوقهم في الاماكن المقدسة وسوف نذكر الرقابة الحاصلة على تلك الاماكن بين طائفتي الروم واللاتين مما كان له اعظم تأثير في المسائل السياسية ولاسيما في حرب القرم كما سيجيء تفصيله .

هذه هي الاسباب التي حملت وزارة (ڤرساي) مدة الثلثين الاولين من القرن الثامن عشر على مباينة روسيا وعدم الاصغاء لطلب الاتفاق معها .

اتفاق روسيا واوستريا

فلما اعيت روسيا الحيل في الاتفاق مع فرنسا ذهبت بعد يأسها من تزويج القيصرة بلويس الخامس عشر نحو اوستريا وامضت معها في زمن كاترين الاولى (٢) سنة ١٧٢٦ معاهدة دفاعية قبل اوروبا وهجومية على الممالك المحروسة

---

[١] البيع (بتشديد الياء) هو المشتري وهو الذي تعرفه العامة بالزبون .

[٢] Catherine I سنة ١٧٢٥ — ١٧٢٧ .

وكاترين هذه هي امرأة بطرس الكبير الثانية وهي ابنة فلاح لتوالي نصبها خليفة له .

وتعهدت كل من الدولتين على اعانة رفيقتها بثلاثمائة الف عسكري في حالة الحرب مع اوروبا وبأكثر من ذلك اثناء الحرب مع العثمانيين وتعاهدتا بأن تمشيا على قدم واحدة لفتح الممالك العثمانية المحروسة .

اتفاق روسيا وبروسيا

ثم امضت روسيا معاهدة اخرى في عهد بطرس الثاني(١) مع بروسيا واتفقت الدولتان بموجبها على تعضيد المنتخب الذي يختارانه لبولونيا بعد وفاة ملكها اغستوس الثاني .

العلائق الودية بين فرنسا والبلاد الاسلامية

لما كانت العلائق الودية بين الباب العالي وفرنسا من اهم مباحث مسئلتنا الشرقية رأينا ان نبسط الكلام في هذا المقام ونستقصي اساس تلك العلائق منذ نشأتها الاولى .

الفتح العمري

لايخفى ان اول العلائق بين المسلمين والنصارى كانت عند فتح بيت المقدس واستيلاء عمر رضي الله عنه على مهد الديانة المسيحية ولكن ما أجراه هذا الخليفة من العدل والانسانية انسي المغلوبين آلام الفتح واراهم ماحيرهم من الحرية

---

[١] Peter II ١٧٢٧ — ١٧٣٠ . وهو حفيد بطرس الكبير ووالده الكسيوس وهو ابن القيصر من امرأته الاولى . وكان الكسيوس ، متعصباً ، عنيداً ، متديناً فقاوم اصلاحات والده وانضم الى الحزب المعارض لأبيه وفر الى النمسا ثم عاد الى روسيا فحوكم بعد ان عذب ومات في سجنه سنة ١٧١٨ .

الاسلامية التي لم يشاهد الشرقيون حتى اليوم لها مثيلاً لوجودهم تحت تضييق الاستبداد الاسيوي وضغط الاستعباد الافريقي فمنح الكتابيين الحقوق المدنية والحرية المذهبية ولم يكلفهم الا بجزية معتدلة سنوية واحترم الأديرة والكنائس قال مؤرخو الافرنج :

(لما كان عمر في كنيسة القبر المقدس حان وقت الصلاة فسأل البطريرك صوفرونيوس عن المكان الذي يمكنه ان يقضي فيه فرض صلاته فأشار عليه البطريرك بأن يصلي في نفس الكنيسة فامتنع عمر واجابه لو صليت في الكنيسة لاقتدى بي المسلمون ولتعذر منعهم عن اتخاذ موضع صلى فيه خليفتهم مسجداً لهم فعدم صلاتي في نفس الكنيسة انفع لصالحكم . قال هذا وخرج من باب الكنيسة ووقف على الدرج الخارجي الجنوبي ووجه وجهه نحو الكعبة ودخل في الصلاة وبعد ان اتمها سأل البطريرك عن الموضع الذي ينبغي ان يشيد فيه جامعاً للمسلمين ليؤدوا فيه فرائضهم بدون ان يشوشوا على النصارى في عبادتهم فهداه صفرونيوس الى موضع الصخرة وكانت مطمومة بالقمامات فابتدأ عمر بتنظيف المحل بيده واقتدى به عسكره وشاد فيه جامعه المشهور . ثم زار كنيسة بيت لحم وكتب للبطريرك عهداً بخط يده ومن احكامه منع المسلمين عن الصلاة في الكنيسة اكثر من واحد معاً . ورغماً عن عدل عمر وافراطه في مكارم الأخلاق لم يستطع صفرونيوس مقاومة الغم الذي حصل له بسبب استيلاء المسلمين على الاماكن المقدسة ومات قهراً فقام مقامه سيرجيوس مطران جوبه وأخذ لقب البطريرك من عمر خليفة المسلمين .) (١)

هارون الرشيد وشارلمان

وكانت احكام السلف الصالح من المسلمين في غاية العدل والانصاف موافقة

---

[١] Noël de Perger : l' Univers

لما جاء في الكتاب والسنة المتكفلين بتوسيع العمران وسعادة نوع الانسان. ثم بمرور الايام وتعاقب الشهور والأعوام غلب التعصب الشرقي والاستبداد الاسيوي على الحرية والتساهل الاسلاميين وظهرت الرقابة بين طائفتي الروم واللاتين على الاماكن المقدسة فأوجب هذان الأمران استرحام الكاثوليك الموجودين في الاراضي المقدسة من الامبراطور شارلمان ان يشفع لهم عند خليفة المسلمين. وكان هذا الامبراطور قد تتوج في مدينة رومية واخذ على عاتقه حماية عموم الكاثوليك ونصرتهم وتفصيل الخبر:

ان مدينة رومية بعد ان تفردت بالعظمة والحضارة وكانت عاصمة العالم القديم رجح قسطنطين عليها بيزانس فأصبحت مهجورة واشتعل نار الحسد في جوفها. ولما انقسمت المملكة الرومانية وصار للغرب امراء خاصة به شاهدت رومية بعيون الأسف والحسرة رجحان ميلان وراثن عليها. ثم هجم قوم اللومبارد على ايطاليا وصار امراء البلاد من الظالمين لها عوضاً عن المدافعين عنها لانحطاط قوتهم وقلة تأثيرهم. فمال الرومانيون عن رؤسائهم المدنيين الى رؤسائهم الدينيين لما رأوه في الباباوات من الفطنة والذكاء والقريحة الواسعة والحرص على منافع الأهالي والغيرة على مصالحهم وسلموهم زمام الاحكام المدنية والسياسية علاوةً على الأحكام الدينية فاستفاد الباباوات من حسن ظن الناس بهم واكتسبوا نفوذاً وقوةً وحموا الرومانيين من سلطة البيزانطيين ثم استجاروا بشارلمان فهدم لهم اركان المملكة اللومبارديه وطرد اللومباردين من البلاد فكافؤوه على ذلك بلقب مخلص الوطن ثم دهنوه بالزيت المقدس في كنيسة القديس بطرس الجامعة والبسوه تاج الامبراطورية فصار كالوارث الشرعي لقياصرة الرومان ومحى من الغرب مابقي من آثار حكم الدولة الرومية وامتد حكم هذا الملك القوي من بحر البلطيك الى البحر المتوسط ومن جبال الالب الى الاقيانوس الغربي واستولى على عواصم

الممالك الغربية مثل تريف وارل وميلان وراڤن ثم على رومية وكان في اوج المجد والاقبال وفي الدرجة العليا من الابهة والاجلال فراى من صالح بلاده وجوب الاتفاق مع خليفة المسلمين الذي اوصل سيوفه لاسوار القسطنطينية ولزوم التودد اليه بالهدايا الثمينة والكلام اللين فاتخذ استرحام كاثوليك القدس وسيلة وبعث لبغداد بهدية وسفارة مؤلفة من مبعوثين فرنساويين ويهودي اسمه اسحاق واوصاهم أن يبلغوا خليفة المسلمين سلامه واحترامه ودعاءه بعزه وسلطانه وان يستعطفوه على الكاثوليك الموجودين في القدس وجميع الحجاج الذين يردون اليها من اقطار العالم النصراني . وكان الخليفة اذ ذاك يحارب قيصر الروم فبعدانتصاره عليه رأى من السياسة التقرب الى الافرنج فاستقبل سفراء شارلمان بمايليق من التعظيم والاحترام واكرم مثواهم واحسن ضيافتهم ووعدهم بمساعدة الزوار والاذن لهم بالزيارة. وزيادة على ذلك احضر مفاتيح كنيسة القبر المقدس من بطريرك القدس وسيرها مع سفارة وهدية فاخرة الى شارلمان سنة ٨٠٧ مسيحية . ولما رجع السفراء من بغداد الى اوروبا مروا بتونس واستأذنوا من اميرها ابراهيم بن الاغلب بحمل جسد القديس سبريين المدفون بقرب قرتاجه فاذن لهم وسير معهم احد امراء قصره . ثم ركبوا البحر ونزلوا جميعاً في بيزا وساروا منها الى اكس لاشپل مقر حكومة الامبراطور شارلمان وقد موالله هدايا الرشيد . وكان في جملة تلك الهدايا الفيل وهو حيوان لم يكن معروفا في اوروبا وسرادق كبيرة من الحرير صالحة لتظلل شارلمان وحاشية قصره وافخر طيب بلاد العرب وعطرياتها وساعة كبيرة تدق ساعات النهار الاثنتي عشر وتدل عليها وشطرنج من صنع بلاد الهند . وقدشاهدت بعض قطعه محفوظةً في دائرة الآثار القديمة من المكتبة الاهلية بباريس وهي من العاج كبيرة الحجم تبلغ القطعة منها عشرة قراريط مكعبة وقطعة الفيل منها تشخص هذا الحيوان بتامه وقطعة الفرس تشخص الفرس والفارس معا وعلى

هذا المنوال بقية القطع . فانبهر الامبراطور وحاشيته من اتقان صنعة الهدية واستدلوا منها على تقدم العرب في الحضارة ولم يعرفوا قبل ذلك عنهم الا النهب والغارة . فكانت هذه الحادثة اول علاقة ودية بين الشرق والغرب واول تقرب بين حكومتي الخلافة الاسلامية وبكر الكنيسة الكاثوليكية.

الفتح الصلاحي

ولما استرد صلاح الدين مدينة القدس من الصليبيين أمن النصارى فيها على اموالهم واعراضهم وارواحهم ثم أجرى لهم الأمان على اموال الكنائس والاديرة. قال العماد الكاتب في تاريخه المسمى بالفتح القسي في الفتح القدسي مانصه : « فقلت للسلطان هذه اموال وافرة واحوال ظاهرة تبلغ مأتي الف دينار . والامان على اموالهم لا أموال الكنائس والأديار فلا تتركها في ايدي هؤلاء الفجار فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الأمر فنحن نجريهم على ظاهر الأمان ولا نتركهم يرمون اهل الأيمان بنكث الأيمان بل يتحدثون بما افضناه من الاحسان . »

وكان السلطان المشار اليه يعامل الاسارى بالرفق والملايمة قال العماد ايضاً « وكنت عند السلطان جالساً ولخبر الحبور لابساً وقد جمع عنده اولئك الاسارى فما اسعد الله في تلك الساعة اولئك الأشقياء ودامت محاورته لهم مشافهة واطعمهم بعد ما آنسهم فاكهة ثم بسطهم بيسط الخوان واشبعهم وارواهم ثم احضر لهم كسوة وكساهم والبس المقدم الكبير فروته الخاصة وكان الزمان برد وفصل الشتاء قد ورد وأذن لهم في ان يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون . »

وكان لصلاح الدين من الافرنج المستأمنين اعوان يرسلهم في البحر ليغزوا ويتجسسوا له على الاعداء فغنموا مرة اموال التجار واتوه بها وكانت اموالاً

جزيلة وقناطر مقنطرة من الذهب والفضة فوهبها السلطان لهم لعدم نوالهم اجر الجهاد فاسلم منهم كثيرون (١).

« ثم عاد السلطان الى القدس وعادت عادة سعادته واشتغل باتمام السور والخندق وتكميل عمارته وفسح للفرنج كافة في زيارة قماته فجاؤا ووجدوا الامن والسلامة وزاروا وراروا ولما عجزوا أن يحتازوا سألوا ان يجتازوا ففسح لفريق من بعد فريق. وتوافوا في طريق وراء طريق وقالوا انما كنا نقاتل على هذا الذي وجدناه مع الصلح وما زلنا سائرين في ليل القصد حتى وصلنا الى الصبح. وكان ملك الانكتير راسل السلطان وسأل منع الفرنج من الزيارة الالمن وصل معه كتابه اورسوله ورغب في أن يجاب سؤاله في ذلك ويصاب سؤله فقيل مقصوده انهم يرجعون الى بلادهم على حسرة الزيارة فيبقون على الاستنفار والاستثاره ومن زار برد قلبه وتنفس كربه ولم يبق له في مشقة العود ارب ولم يصل له بهذه الديار سبب فكان الامر كما حسب فاعتذر اليه فى الجواب الذي كتب وقيل له انت اولى بمنعهم وردهم بردعهم فانهم يصلون الينا وافدين ولزيارة الكنيسه قاصدين وما يقتضي كرمنا أن نرد الوفود ولانبلغ من يقصدنا المقصود. ومرض ملك الانكتير مرضا الهاه عما اشتهاه ولم يبلغ في هذا الغرض الى منتهاه وكان جعل كنيسة صند حنا عند باب الاسباط للفقهاء الشافعية مدرسة وردها نبيت على التقوى مؤسسة وزاد في اوقافها ووفر مواد تلادها وطرافها وسنذكر كيفية طلبها واستردادها » (٢).

وبعد أن رحل فرسان الصليبيين عن سوريا وفلسطين بقي فيها الرهبان والمتعبدون لاقامة الصلوات في الاراضي المقدسة وقبض الصدقات من الزوار الذين ياتونها من جميع الاقطار وكانوا يقيمون في كنائسهم واديرتهم بين ظهران المسلمين

(١) الفتح القدسي طبع ليدن ص ٦٠
(٢) الفتح القدسي طبع ليدن ص ٤٤٠

ويشكلون الجمعيات الاخوية ويضمون اليهم جميع الاجانب المقيمين بديار الاسلام. فلما عادت فرنسا للشرق بصورة حبية للدولة العلية وجدت فيه اولئك الرهبان على ماتركتهم عليه اثناء الفتح الصلاحي فاتخذتهم آلة لها ونواة لحركتها السياسية في الشرق وعملت على حمايتهم وتقويتهم وتوسيع نفوذهم.

الدولة العثمانية وفرنسا

اما العلائق الرسمية بين الباب العالي والبلاط الفرنساوي فانها ظهرت في عهد السلطان بايزيد الثاني (١) وذلك انه في سنة ١٤٨٣ ارسل السلطان الى لويس الحادي عشر سفيرا اسمه حسين بك ليخابره بشأن استرداد السلطان جم. وحيث كان خبر هذا السلطان من غرائب الدهر نأتي هنا على خلاصته تعميما للفائدة فنقول:

خلف السلطان محمد الفاتح (٢) من زوجته ذوالقدرية (٣) بنت سليمان احد رؤساء التركمان من آل ذوالقدر ولدين اكبرهما السلطان بايزيد وثانيهما السلطان جم واحسن تربيتهما وثقف عقولهما بعلوم الشرع وفنون الأدب. ولما بلغا اشدهما نصب بايزيد والياً على ايالة أماسية ونصب جم والياً على ايالة قرمان لتدريبهما على الحكم والادارة وتعليمهما ادارة الملك والممالك. وخوفاً من خروجهما وتغلبهما عليه ابقى عنده ولديهما رهناً عليهما وهما قورقود بن بايزيد واويوز بن جم. وكان مقر ايالة اماسية مدينة اماسية ومقر ايالة قرمان مدينة قونية وهي في السابق عاصمة مملكة اقنوم روم. ولذا كانت متقدمة على بقية مدن الاناضول في الحضارة والعمران وفيها كثير من العلماء والادباء وذوي الفنون والعرفان

---

[١] السلطان بايزيد الثاني سنة ١٤٨١ — ١٥١٢

[٢] السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥١ — ١٤٨١

[٣] Soulkadre

Universitäts- und Landesbibliothek Halle Zweigbibl. Kirchener Orient

فأدار جم هذه الأيالة بغاية الحزم والعزم. وكان في السنة الثامنة عشر من عمره وعلى جانب عظيم من الفطنة والذكاء وتوقد القريحة. فانه نظم كثيراً من القصائد والغزليات وترجم نظماً رواية خورشيد وجمشيد من الفارسية الى التركية واشتهر بالشجاعة والفروسية واظهر من المهارة في امور السياسة على حداثة سنه ما يفوق الوصف. فمال اليه الصدر الأعظم محمد باشا النشانجي ورغب في ولايته بعد والده فكان ذلك سبباً لقتله.

ولما مات والده السلطان محمد الفاتح كتم امر وفاته وارسل سراً رسولاً الى السلطان جم يستدعيه بالحضور مع عساكره الى الاستانة العلية. وابعد بدهائه الانكشارية عنها ولكن قبل تمام العمل وتحقق الأمل ظهر الأمر وفشي الخبر فعصت عساكر الانكشارية ورجعوا بالقوة والجبر الى القسطنطينية وقتلوا الصدر الاعظم واقاموا قورقود بن بايزيد وكيلاً عن ابيه بالنظر لغيابه لأنه اشيع ان بايزيد سافر الى الحج مع انه لم يفارق اماسية فلما بلغه الخبر حضر مسرعاً الى مركز السلطنة وجلس على كرسي المملكة وقبل البيعة لنفسه.

اما جم فبينما كان مجداً مسرعاً في السير على رأس جيش عرمرم من التركمان بلغه خبر البيعة لأخيه وهو بقرب مدينة بروسه ولقي فيها فرقة من عساكر الأنكشارية فقاتلهم وهزمهم ودخل البلد واتخذها عاصمة سلطنته وقبل البيعة لنفسه وضرب السكة وقرئت الخطبة على المنابر باسمه. ولكن لسوء حظه لم تمتد سلطنته الوهمية اكثر من ثمانية ايام. لأن السلطان بايزيد استدعى امهر قواد المملكة واشجعهم وهو احمد غيدوق (١) باشا الأرنؤوطي وكان اذ ذاك يحارب على الحدود الطليانية فقدم الى السلطان الذي جهز اليه جيشاً وتولى قيادته وامره بالسفر الى مدينة بروسه لمحاربة اخيه الذي خرج عليه. فتوسط السلطان جم بعمتهما العجوز السلطانة سلجوق خاتون وارسلها سفيرة الى الاستانة لتخابر اخاه

بشأن الصلح فحضرت العاصمة وذكرت السلطان بايزيد بحقوق القرابة واستعطفته على اخيه ورجته بأن يتفرغ له عن الأناضول فلم يصغ بايزيد لها وأجابها بمصراع من كلام سعد الدين الشيرازي مفاده ان « لاقرابة بين الملوك » . فدارت رحى الحرب بين عساكر الشقيقين وكانت سجالاً الى ان اغرى السلطان بايزيد يعقوب رئيس قرناء السلطان جم الذي خدع سيده وحسن اليه عدم اتوجه بجيوشه الى ايالة قرمان وانتحصن بها رغماً عن اشارة وزرائه بذلك . ومع ان السلطان جم كان حاذقاً بالمسائل السياسية ماهراً في الفنون العسكرية فانه غلط باتباعه رأي يعقوب كما غلط بتقسيم جيشه الى فرقتين وارسال احداها الى مغنيسا . ولما انتشب القتال في السهول الواقعة بقرب يكي شهر بتاريخ ٢٠ حزيران سنة ١٤٨١ وصل فجئةً لعساكر السلطان بايزيد مدد من الانكشارية فتم له النصر وتشتت عساكر جم المؤلفين من قبائل قرمان وطورغود ووارساق ودارت الدائرة على الباغي لأن المستحق للسلطنة في الحقيقة كان السلطان بايزيد لأن قاعدة الوراثة في آل عثمان كانت تنتقل الى الارشد فالارشد من العائلة . كما ان بايزيد كان اكبر سناً من اخيه وكان عموم الانكشارية واهالي العاصمة معترفين بولاية عهده واما السلطان جم فلا حجة له بطلب السلطنة سوى ولادته بعد جلوس ابيه وليس هذا بسبب مقنع كاف .

وبعد ان غلب جم واتباعه لم يرَ له نجاة الا بالفرار والالتجاء مع بعض حاشيته وقسم من خيالته الى معقل ارمني (١) الواقع في مضائق جبال طورس . ولسوء طالعه صادف هناك جماعة من التركمان كامنين لقطع الطريق فسلبوه ماعليه من السلاح واللباس وما معه من الأثاث حتى اصبح حافياً عرياناً لايطعم من جوع ولايؤمن من خوف . فصبر على الشدائد صبر الأحرار من الرجال وتجلد تجلد

---

[١] Defilé d' Ermenie

الأبطال وتردى بكبنك (١) (نوع من البرنس او العباء) وزيره سنان بك وجد في سيره وهو يغور وينجد في تلك البلاد الكثيرة الممالك والمخاطر الى ان وصل مدينة أيوجك (٢) فأقام بها ريثما ربط جرحاً اصابه في فخذه من لطمة فرس واستمر في مشيه طول ليله رغما عما به من التعب والالم وخيالة اخيه تقتفي اثره وتستقصي خبره فلما اصبح الصباح وصل اسكيشهر واجتمع فيها بامه وحرمه. ثم فارقهم عجلاً واستصحب معه بعض حاشيته وساربهم الى سوريا فمر بطرسوس ثم بدمشق واستقبله فيها وجوه الاهالي والمأمورون الموظفون من جانب سلطنة مصر واكرموه واحترموه ولم يصده تهافته على سرعة الوصول لدار سلطنة قايتباي عن التعريج على بيت المقدس وزيارة مسجده الاقصى وصخرته المشرفة.

وفي خاتمة هذه السفرة الطويلة العريضة وصل مصر ودخل القاهرة بموكب حافل من الاهالي الذين تجمعوا عليه مستقبلين ومتفرجين وحل ضيفا مكرما في دار الوزير الاكبر (ديويدار) وفي الصباح حظى بلقاء قايتباي فتلقاه ملاقاة الوالد لولده وترحب به واكرم مثواه وخصص له احدى السرايات داراً لضيافته. ومع عدم التقصير في رعاية جم واكرامه احترز قايتباي من اعلان الحرب على السلطان بايزيد واوصاه بمخابرته ثانية بشأن الصلح وتعهدله بالتوسط بينهما وتكليف اخيه باعطائه شيئاً من الملك فاقام جم في القاهرة اربعة اشهر يراسل اخاه بالاشعار الفارسية والابيات التركية وكان الاخوان مثل والدهما على جانب عظيم من فصاحة اللسان وقوة البيان والتضلع في العلم والادب. ولما لم يرلتلك المخابرات نتيجة حسنة ولا فائدة. تداول مع كثير من الامراء في اعادة الحرب وقررايه على حمل السلاح مرة اخرى فجمع بهمة السلطان قايتباي وكاظم والي قرمان جيشا جديداً

(١) Kepenek (٢) Ouyoudjik

وجعله تحت قيادة محمود وحاصر به قونية فلم يقدر على فتحها . وبعد أن ثبت بجيشه القليل العدد والعدد امام احمد غيدوق باشا الارنؤوطي برهة من الزمان غلبته الكثرة فتشتت عساكره شذر مذر وسار مكبا على وجهه في جبال سيليسيا وهو في غاية الحزن والكآبة واشتدت رغبة السلطان بايزيد في مصالحة اخيه والاستيلاء على شخصه اوقتله ليخلص من غائلته فاخذ يستميله بالمواعيد وارسل اليه سكبان باشى (قائد انكشاري) ليصالحه على ولاية من الولايات التي ينتخبها وعلى معاش قدره مئتا الف ذهب (٢٠٠٠٠٠٠) فاجابه جم بابيات تركية يقول فيها ليس طلبي للمال وانما هو للملك والجلال .

ولو ان ما اسعى لادنى معيشة كفاني ولم اطلب قليلا من المال

ولكنما اسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

فكتب اليه بايزيد :

(ان عروس الملك لاتقسم بين رقيبين فاقسم عليك ياخي ان لا تلطخ نعال فرسك واذيال ردائك بدم المسلمين وان تحقن دماء اوائك المعصومين وان تتمتع بما يخصص لك وانت في القدس بالصلح والصلاح .)

وفي اثناء ذلك شرع السلطان بايزيد في اهاجة خواطر المسلمين على اخيه لخروجه عليه وارسل هرسك باشا مع فرقة من الخيالة ليسدوا عليه الطريق ويمنعوه عن التحصن في معاقل الجبال . فشتد كرب جم واخذ يفكر في الخلاص من شدته ويستشير كاظم وبقية رفاق محنته لان قائده محمود انهزم وتشتت شمل عسكره فقر رأي اصحابه على المسير للروم ايلي ودعوة اهلها لنصرتهم ولكن الذهاب الى تلك البلاد كان دونه خرط القتاد وقطع البحار والأطواد ونار حامية من عسكر اخيه المنتشر كالجراد . فلما اعيت جم الحيل الى الوصول الى هذا الأمل قر قراره على ارسال رسول الى بطرس اوبيسون رئيس فرسان رودس

يسأله الاذن في النزول الى جزيرتهم وفي حمله على مراكبهم وايصاله الى ساحل اوروبا وكان هذا التدبير اسو ماتخذه هذا الأمير . فتداول اصحاب رودس فيما اتاهم به الرسول ورأوا فيه منفعة «سياسية» لهم ووقاية لحيثية حكومتهم وشرفها وجر مغنم كبير في مقابلة مغرم صغير. فقرروا قبوله وسيروا مع الرسول اسطولاً تحت قيادة الفاريز (دوزونيكه) (١) ولكن جم فانه لم ينتظر وحضر الى ثغر كويكوس (٢) الواقع على ساحل سيليسيا والقى بنفسه في مركب قرماني وارخى له القلاع فسار يمخر به عباب البحر وفي اليوم الثاني الواقع في ٢٠ حزيران سنة ١٤٨٣ شاهد على الافق عمارة بحرية فاقترب منها فوجدها مركب رسوله ومعه الاسطول الرودسي الذاهب لأخذه فانتقل للسفينة المعدة لركوبه واستمر في السير في طريقه فوصل بعد ثلاثة ايام الى رودس واستقبل فيها بغاية الاحترام وانزل على السعة والرحب في منزل يليق بجنابه العالي . فاغتر جم بهذا التملق وظن مداهنتهم صداقةً له وتوهم انهم يعينوه على مآربه ولم يعلم حقيقة مكرهم ولا وقف على مادبروه من امرهم ليتخذوه آلة لاقتناص المنافع واكتساب الاموال ودس الدسائس على السلطان بايزيد وعلى المملكة العثمانية لان فرار السلطان جم والتجاءه الى اعداء الدين والدولة كان له اثر كبير في نفس بايزيد حتى قيل بانه ارسل جاسوسا ليقتله وهو في تلك الجزيرة ولكن حبطت اعمال ذلك الجاسوس. فشعر بلزوم عقد معاهدة مع الرودسيين وبعد المخابرة والمذاكرة تقررت الشرائط المتفق عليها وامضت المعاهدة المنعقدة بينه وبين اصحاب رودس وسلم منها صورة ممضاة لرئيس الفرسان بطرس او بيسون (٣) فلما ظفر هذا الرئيس بمكره ودهائه بمعاهدة من السلطان بايزيد وجه وجهه نحو جم وعقد معه اتفاقاً سرياً ليصير تنفيذه بعد جلوسه على التخت

---

[١] Alvarez de Zuniga

[٢] Kouikous (Corycus)

[٣] Pierre d' Aubusson

وانتقال الملك اليه وبموجبه تعهد جم بفتح جميع الثغور العثمانية لمراكب الرودسيين واطلاق سراح ثلاثماية اسير نصراني في كل سنة مجاناً وبلا فدية ودفع مائة وخمسين الف ذهب (دوقه) في مقابلة المصارف التي تصرف عليه . وبعد ان استحصل رئيس الفرسان الرهبان على هذه المعاهدة الثانية وضع المعاهدتين في صندوقه ولم يهتم بعد ذلك الا بوضع ضيفه في محل امين والتحفظ عليه كما يحتفظ الدر الثمين وهكذا اصبح السلطان جم اسيرا بسبب سوء تدبيره ومخادعة الرودسيين.

فقالوا له يوما بان في بقاءه في رودس خطراً على حياته وتأخيراً لمصالحه واشاروا عليه بالذهاب للدير من ادیرة الطريقة الرودسية التي بمدن اوروبا وهناك يتربص سنوح الفرص المناسبة لايصاله لما يتمناه . وكان جم يجهل دسائس اوبيسون واغراضه الشخصية وقساوة قلبه الوحشية فركب الاسطول الرودسي هو وثلاثون شخصاً من اتباعه وسار تحت محافظة الشيقالية اكوى دوبلا نشفور (١) ابن اخ الرئيس قاصداً مملكة فرنسا . وكانت السفن تمخر به عباب البحار بين تلك الامواج الكبار ولسان حاله يقول ماقاله سابقاً امرؤ القيس .

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه

وايقن انا لاحقان بقيصرا

فقلت له لاتبك عينك اننا

نحاول ملكا اونموت فنقبرا

وبقي على هذه الحال اياماً وليالي الى أن وصل الاسطول البر ونزل هو واتباعه في مدينة نيس واقاموا في دير رهبان رودس وقبل أن يستريحوا طلب جم استئناف السفر الى هنغارية ليتمكن من دعوة حزبه لنصرته والقيام على اخيه ومحاربته وظن انهم يجيبوه الى ذلك فاعتذروا اليه انه في اراضي فرنسا والاداب والسياسة

---

[١] Le Chevalier Gai de Blanchefort

يقضيان اولا باستحصال رخصة من ملكها لويس الحادي عشر فاغتر بهذا الكلام وانخدع وارسل اليه رسولا من اتباعه . وبعد أن سار ذاك الرسول مسيرة يومين توقف وحبس باشارة الفرسان وارسلوا خبرا الى ملك فرنسا بمجيء هذا الأمير الخطير الى نيس . اما السلطان جم فبقي ينتظر رجوع الرسول اليه اربعة اشهر قضاها بنظم الشعر وتدبيج القوافي والتحسر على فراق الوطن والأهل والتألم من آلام الغربة لاقامته بين قوم يخالفونه ديناً وعوائد واخلاقا . ولكن كان انتظاره عبثاً وذهب سعيه سدى حيث لم يحضر له من الملك خبر ولا وقف لرسوله على اثر .

وفي اثناء ذلك ارسل السلطان بايزيد الى لويس الحادي عشر بعثة سفراء لتطلب منه استرداد السلطان جم بشرط ان يقدم له في مقابلة رده مبلغاً وافراً من النقود ويطلق سراح عدداً كبيراً من الاسرى بلا فدية فرفض لويس قبول السفراء ولم يسمح لهم بأن يتجاوزوا مدينة ريز الكائنة في ايالة بروڤانس . ثم ظهر الوباء في البلاد واتخذه رهبان رودس وسيلة لنقل جم من ديرهم في نيس الى دير آخر لهم في مدينة روميللي (١) من ايالة ساڤوا (٢) وذهبوا به عن طريق اكزيل (٣) و (البيه مونتيز) (٤) . وكان لجم مصاحبان عاقلان مدبران يحبهما ويعتمد عليهما في الشدائد وهما يحبانه حباً شديداً ويخلصان اليه ويبذلان انفس مالديهما في سبيله فلما استقر في دير روميللي اشار عليه الرهبان بارسال هذين الصاحبين بسفارة مخصوصة الى متيا فورڤن ملك هنغاريه فانخدع جم بقولهم مرة ثانية وفرط بصاحبيه كما فرط بأخ لهما من قبل وامرهما بالمسير فتخفيا وسافرا ولم يسمع بعد

---

(١) Rumilly
(٢) Savoie
(٣) Exiles
(٤) Alpes Piémontaises

ذلك لهما خبراً ولا بان لهما اثر . فهل قتلا او حبسا ؟ لاندري .

فاستوحش جم لفراق صاحبيه وتأثر لغيبتهما تأثراً عظيماً واشتد حزنه وكدره عليهما وأساء الظن في الرهبان وعرف غشهم وخداعهم له فعدل عن استشارتهم وقبول نصائحهم ومال الى شارل الثاني دوك ساڤوا . ولم يكن الدوك اوفر حظاً ولا اسعد طالعاً من السلطان جم لانسلاب حريته بوجوده تحت وصاية ملك فرنسا واستبداده به فتعارفا وائتلفا وتهاديا وتحابا وكان جم يكثر التردد على شارل وشارل يسعى في تخليص جم من أسر الرهبان ويجتهد بتبليغه الأماني فأحس بذلك اصحاب رودس ونقلوا جم من موضعه بتاريخ ٢٦ حزيران سنة ١٤٨٣ وابعدوه عن جماعته واتوا به وحده عن طريق ايزر واسكنوه في قصر (روشيشنار) في رويان وهو برج حصين محاط بالغابات جميل المنظر محكم البناء . وارسلوا جميع اتباعه وحاشيته الى رودس فأقام جم شهري الصيف في ذلك القصر ومكنوه من زيارة مايجاوره من قصور الامراء والزعماء ومن التضيف بهما ومعاشرة اهلها وكان شاعراً اديباً رقيقاً كريماً طروباً عارفاً باللغة واصول المنادمة مع ماهو عليه من العظمة والجلال والأبهة والكمال وبقية الصفات التي امتازت بها سلاطين آل عثمان على سائر الأقران . وكان في عنفوان الشباب ابيض اللون قوي العضل ضخم الجثة مفتوح الشهية متصلب في الدين متعفف عن المحرمات . فظرف عليه ادباء الافرنج حكايات ونظمت شعراؤهم فيه قصائد وابيات وقص القصاصون عنه قصصاً وروايات . من ذلك الكتاب الذي حرره الاديب (غوي اللار) وسماه (عشق جم البرنس العثماني بفيليبين هيلانة دوسا سيناج) وهي بنت البارون دوسا سيناج وكانت بديعة الحسن رشيقة القد لطيفة الحديث وابوها ذواقتدار وثروة ونفوذ وقوة . ورغماً عن ذكر المؤرخ نيقولا قوريه هذه الحادثة لم يزل امر العشق في نظر التاريخ من قبيل الأقاصيص الخيالية والروايات الوهمية لأن الشرع المحمدي

وان اباح التزوج بالكتابيات الا اننا نظن ان الآداب الاسلامية وانشغال فكره بالمسائل السياسية صداه عن مغازلة النساء والانجذاب بعيونهن النجلاء .

ونقل لنا روقل اليسوعي ان السلطان جم كان يدعى عند السنيور مونشينو في فينوا ويجلس بجانب اخته اكنه او حنه ويحادثها ويلاطفها وكانت جميلة الوجه شقراء فصبا اليها وحن عليها وحبها حباً جماً . وهذه الحكاية اشبه برواية لابوتير الذي صور جم بصورة ماركيز في غاية الظرف واللطف والأدب وادخله بقصر الملك في باريس وجعله يجتذب قلوب العذارى بطلعته ويستميلهن بظرفه ورقته .

هذا مارواه الراوي وقصه القصاص اما الذي يعلمه التاريخ هو ان جم بعد ما اقام في قصر روشيشنار شهرين أجبر على تركه والذهاب الى اقيرينه لان الدوك شارل دوساڤوا لما تخلص من وصاية لويس الحادي عشر الاستبدادية اراد ان يمديد المعونة لصديقه في ايام محنته ويساعده على التخلص من اسره والتملص من كيد الرهبان والذهاب الى هنغارية ومنها لبلاد الافلاق والبغدان . فعرف ذلك اصحاب رودس بواسطة جواسيسهم وحالوا دون جم والوصول الى مرغوبه وفرقوا بينه وبين صاحبه وحبيبه وشددوا في التحفظ عليه .

ولنذكر الان سبب عناية رهبان رودس بحفظ جم وعدم تمكينه من السفر ودس الدسائس عليه . وفتح باب الامل لديه ثم مما طلته بالوعود والاحتيال عليه بالسفر او القعود . وذلك ان السلطان بايزيد لما عقد المعاهدة المتقدم ذكرها بينه وبين اوبيسون رئيس فرسان رودس تعهد له بدفع مبلغ سنوي قدره ٤٥,٠٠٠ ذهب (دوقه) وشرط عليه تشديد المحافظة على جم وعدم اطلاق سراحه ولا يمكنه من الفرار ولا يسلمه لملك من ملوك اوروبا خوفا من الاستيلاء على شخصه واتخاذه آلة لتهديد المملكة العثمانية . ولم يكتف اوبيسون بهذا المبلغ الكبير بل اختلس من جم ختمه وزور على لسانه تحريرا لوالدته وزوجته ولسلطان

مصر ولجميع ملوك اوروبا بانه ليس اسير الرودسيين وانما هو ضيفهم ومقيم عندهم عن طيب خاطر بطوعه وارادته وبانهم يكرمونه ويعزونه ويعاملونه بالتي هي احسن. فاستحصل اوبيسون بهذا المكر والخداع من والدة جم على ٢٠٠٫٠٠٠ ذهب في مقابلة مصارف ابنها السفرية و٢٠٠٫٠٠٠ ذهب من سلطان مصر و١٠٠٫٠٠٠ ذهب من البابا انيوسان الثامن ومن ملك هنغارية ليسهل لجم الوسائط التي ينال بها مرغوبه. فكان مجموع ذلك كله ٩٥٠٫٠٠٠ ذهب. فهذا المغنم هو السبب الاعظم في المحافظة على شخص تأتيهم من قبله الاموال الطائلة بلا اتعاب ولا اشغال. فادخروه كنزا لهم وآلة لسعادتهم وواسطة لمحاربتهم السياسية مع ملوك الشرق والغرب.

ثم نقل جم من اوفيرينه عن طريق ويلي الى «قوماندارية» (بورغه رنيف) وحبس فيها سنتين كاملتين. فكان يقضي اوقاته بنظم الاشعار ويتسلى بمطالعة السير والاخبار فنظم قصته وتاريخ محنته. وتحركت اوروبا لخطبه الجسيم وتحدث ملوكها بشأنه العظيم.

ولما راى البابا اينوسان الثامن (١) ان السلطان بايزيد ينعم على من يحبس له جم ويحفظه ويعترف لحافظه بحقوق وامتيازات وان سلطان مصر يتطلبه ليحارب به آل عثمان خابر فرسان رودس ليسلموه اليه فقبلوا وكان مراد هم تجنيد الجنود ووضع جم على رأسها واعلان الحرب الصليبية واعادتها مرة ثانية. فاقشعر بدن جم من تكليفهم له بهذا الأمر المخل بالدين ورفض الذهاب مع المسيحيين لمحاربة اخوانه المسلمين. وفي اثناء ذلك ارسل السلطان بايزيد سفارة الى البابا تحمل اليه المبالغ الوافرة والعطايا الكثيرة لمنع اخيه عن السفر والمحافظة عليه. فقبل البابا اسكندر السادس (٢) انعام السلطان كما قبله سلفه البابا اينوسان.

---

[١] Innocent vIII

[٢] Alexander vI

ولما جلس على كرسي المملكة الفرنساوية شارل الثامن وفتح ايطاليا وتخيل فتح الممالك الشرقية ادرك فائدة استملاك جم فطلب من البابا تسليمه اليه فلم يسع اسكندر الا اجابة هذا الطلب ولكنه قبل تسليمه اياه سقاه سما قاتلا لايميت عاجلاً باشارة السلطان بايزيد على ماقيل . فمات بعد شهر من وصوله لباريس في ٢٥ شباط سنة ١٤٩٤ مسيحية وكانت ولادته سنة ١٤٥٩ رحمه الله وتجاوز عن مساويه واسكنه فسيح جنانه .

فاستراح السلطان بايزيد من غائلة اخيه ولكنه حزن عليه وبكاه واسف على موته في غير دار الاسلام .

وكان السلطان بايزيد ارسل حسين بك مرة ثانية بمأمورية مخصوصة الى شارل الثامن سنة ١٤٨٦ فامتنع شارل عن قبوله ومواجهته . ثم ارسل له سنة ١٤٨٨ (انتوان يبرفو) برسالة مخصوصة ينصحه فيها بقبول الأشياء المختلفة التي يلقيها عليه السفير . وفي سنة ١٥٠٠ كتب السلطان الى لويس الثاني عشر (١) تحريرين بشأن الجمهورية الونديكية .

ولما لبس فرنسوا الأول (٢) التاج اخذ يحرض اوروبا ضد العثمانيين فكلف امبراطور المانيا وفرديناند الكاثوليكي في مؤتمر عقدوه في مدينة قامبره سنة ١٥١٧ بعقد معاهدة لتقسيم المملكة العثمانية . الا ان البابا ليون العاشر افسد عليه عمله فحبطت مساعيه .

ولم يعبأ به السلطان سليم ومنحه في تلك السنة الامتيازات التي كان استحصل الفرنساويون عليها في مصر من قانصوه الغوري سنة ١٥٠٧ (٣)

---

(١) سنة ١٤٩٨ — ١٥١٥

(٢) سنة ١٥١٥ — ١٥٤٧

[٣] ملك سنة ١٥٠١ — ١٥١٥ . وقتل وهو يحارب جيوش السلطان سليم في مرج دابق

Histoire de l' Empire Ottoman par le Vte de la Jonquiérep.224

ثم انتقلت اكثر الممالك الاوروبية بطريق الارث الى امبراطور الألمان واصبحت فرنسا محبوسة داخل مملكتها ولا سبيل للخروج منها الا بالمرور من املاك اوستريا ـ اسبانيا لأن شارلكان لما جمع على رأسه تيجان ممالك اسبانيا وايطاليا والمانيا وهولاندا حصر فرنسا من جهة البر بسيوف رجاله وبتملكه على نابولي وسيسيليا واوران واتفاقه مع الونديك وسيادته على جنوه وفلورانسا طردها من البحر المتوسط. فرجحت الموازنة الاوروبية وكادت تزول وتزيل معها فرنسا اذا لم تقم دولة معظمة فخيمة ذات شوكة برية وسطوة بحرية بازاء تلك الدولة الجسيمة الفخيمة فكان يقتضي لتعديل الموازنة وجود عامل قوي يصرف اوستريا عن فرنسا ويمكنها من التنفس وتنسم الحياة ووجود ملجأ مكين لها يعينها على اعادة قوتها في البحر المتوسط ومداومة تجارتها مع الشرق.

فمن ياترى تلك الدولة التي تستطيع تهديد اوستريا وصرفها عن فرنسا؟ لم يكن في ذلك العصر الا امة واحدة قادرة على اجراء هذا العمل العظيم الا وهي الامة المعظمة العثمانية والدولة الكبرى الاسلامية حيث كانت ممالكها تشغل ثلاث قطع العالم القديم وعساكرها تهدد مركز ممالك شارلكان وهي مدينة فينا واساطيلها تشق عباب البحر المتوسط وتحكم فيه ولا يتصور وجود خصام اذ ذاك بين المملكة العثمانية والمملكة الفرنساوية لان منافعهما واحتياجاتهما مشتركة واعداءها واحدة بسبب مواقعها الطبيعية ولا مانع من اتفاقهما وان اختلف الدين ودس الدسائس الرهابين والمتعصبون.

فلما اسر فرنسوا الاول في معركة باڤي وراى سيفه مكسورا وشعر قلنسوته مقطوعا تضعضع ايمانه وشك في كل اعانة تأتيه من قبل النصرانية ورمى بنفسه بين ايدي المسلمين وصارت فعلته هذه التي فعلها وهو من اليائسين مبداء جديدا في اصول السياسة الفرنساوية. ففي ٢٥ شباط سنة ١٥٢٥ ارسلت نائبة الملك لويز

دوسقوا بناءً على نصيحة وزيرها العاقل (دويره) سفيرا الى السلطان سليمان يحمل له هدية ثمينة وتحرير مخابرة في الاتفاق على شارلكان فقتل ذاك السفير الذي سكت التاريخ عن اسمه في البوسنة مع اثني عشر شخصاً من اتباعه . وفي شهر ايلول من تلك السنة جاء الى الاستانة القونت جان فرانجيباني وهو شاب ظريف مجري مستخدم عند الدولة الفرنساوية وقدم للسلطان تحريرا من فرنسوا الاول ومؤداه كما ذكر في تاريخ صولاق زاده « أن السلطان الاعظم يحارب ملك المجر (يعني به شارلكان) ونحن نحارب ملك اسبانيا (وهو شارلكان ايضاً) نأخذ منه بثأرنا فنرجو ونتمنى بان سلطان الدنيا الاعظم ينعم علينا بدفع هذا المتكبر ونكون من الآن وصاعدا العبيد المديونين للسلطان الكبير سيد الدنيا » .

وفي ذلك التاريخ ايضاً ارسل شارلكان للسلطان يستعطفه ويطلب الاتفاق معه فرفض السلطان طلبه لوجود عداوة طبيعية بين المملكتين بسبب المجاورة وقبل طلب ملك فرنسا شأن الحمية العثمانية في نصرة الضعيف من جهة ورغبة في اضعاف الامبراطور والتقدم نحو غرب اوروبا من جهة اخرى . واستقبل السفير الفرنساوي بغاية الاكرام وانعم عليه بالهدايا الفاخرة الثمينة ووعده بالسفر الى بلاد المجر . وارسل لفرنسوا الأول جواباً يسكن به روعه ويسليه على مصابه ومن مطالعة الجوابين تفهم حالة الدولتين والنسبة بين قوتيهما حيث يقول له به بعد الحمد والصلاة (انا سلطان السلاطين وبرهان الجواقين ومفرق التيجان على ملوك الأرضين . . . . . وانت فرانچسقو والي ولاية فرانچه . . . . اما بعد . .) الخ. وقد شاهدت هذا المكتوب في المكتبة الأهلية بباريس في دائرة الكتب الخطية وهو كبقية الفرمانات والبراآت بالخط الديواني والحبر الاحمر والاسمر وماء الذهب وموشح بالطغراء . ولم تعقد معاهدة بين الدولتين لأن فرنسا كانت ملتجئة ومحتمية بالباب العالي وليست متفقة معه .

فبعد ان كانت فرنسا روح الحروب الصليبية وعضدها الاكبر صارت اول من صالح المسلمين من الاوروبيين واتفق معهم . وهكذا انقلبت سياسة فرانسوا الاول ولم تتغير من بعده في عهد اخلافه وهي السياسة التي خلصت اوروبا من استبداد دولة (اوستريا ـ اسبانيا) فبينما كانت دول اوروبا ورجال سياستها يبشرون باقامة الحروب الصليبية ضد المسلمين كان طلب فرنسا للاتفاق معهم من اغرب الغرائب ؟؟ ومن شأنه تهييج الأفكار العامة في اوروبا واثارتها ضد الاتفاق المحرم في اعينهم الواقع بين الهلال والزهرة (١) ونادت اوستريا بالخيانة دين المسيح ! وقامت القيامة على بكر الكنيسة فرغماً عن هذه الاضطهادات بقي فرانسوا الأول محافظاً على الخطة السياسية التي خطها له وزيره العاقل دوبره ودامت المواصلات والمخابرات الودية بلا انقطاع بين المملكتين . وكانت سفراء فرنسا وقناصلها يسلكون لاستحصال مآربهم مسالك شتى فكانوا يهادون الصدور العظام ويرشون كتبتهم وكتام اسرارهم ويترددون على القضاة والمفاتي ويكتسبون توجهاتهم ويخالطون الخدمة والطواشية ويتوصلون بهم الى شفاعة السلطانات وبقية مخدرات القصر ويتوسلون لنيل اغراضهم بجميع الوسائط . غير انه كان محظوراً عليهم امضاء معاهدة او عقد يقرب منها بأي وجه من الوجوه خوفاً من اطلاع اعداء فرنسا على مثل ذلك واتخاذهم له حجة وسنداً لاثارة التعصب النصراني عليها .

ومع ان ملوك فرنسا لم يجهلوا بأن اوروبا كانت تعلم علم اليقين بأنهم ملتجؤون للمسلمين ومرتكبين امام الكنيسة اثماً باتفاقهم مع الموحدين الا انهم لم يمكنوا

---

(١) هي زهرة الاقاح او السوسن كانت شعاراً لملوك فرنسا من آل بوربون يرسمونها على اثوابهم ومفروشاتهم ومركباتهم وعلى جميع الادوات التي يستعملونها كما ان الهلال يرفع على قبب الجوامع والمدارس والمآذن والمدافن .

اعداءهم من القبض على سندات وحجج مادية ومحسوسة تثبت اتفاقهم مع المسلمين وصار فرنسوا الأول يفتش عن اسباب استجلاب الرهبان اليه وتوسيع العلائق التجارية بين فرنسا والشرق ليرفع من اعين العالم النصراني زلة احتمائه بالخلافة الاسلامية ويبرر نفسه امام الرأي العام الأوروبي . فاستعان برهبان الكاثوليك وعبادهم الذين تركهم الصليبيون في الأراضي المقدسة لايقام الصلاة وايتاء الزكاة كما تقدم ذكره واتخذهم مستنداً له وبنى عليهم سياسته ومداخلته مع البلاد الاسلامية. وفي سنة ١٥٢٨ ارسل (انطون دورينسون) للسلطان بمكتوب يلتمس فيه اعادة المدرسة الصلاحية كنيسة وهي واقعة بمدينة القدس عند باب الاسباط فأجابه السلطان بغاية اللطف والرقة واعتذر اليه بعدم امكان تنفيذ التماسه لمخالفته الدين وخشية اهاجة خواطر المسلمين ووسع له امتيازات الفرنساويين في مصر بموجب خط شريف مؤرخ في ٢٠ ايلول سنة ١٥٢٨ ومنحهم حق التقدم في الشرق على سائر الأقوام الأوروبية فكان هذا الخط اول عهد اعطي من جانب الدولة العلية لفرنسا . ثم صار توسيع مضمونه وضم امتيازات جديدة اليه واتخاذه اساساً للمعاهدات التي يقال لها (قاپتيولاسيون) وهذه الكلمة مأخوذة من الطليانية ومعناها العطاء والاتفاق . وكانت اللغة الطليانية في القرون المتوسطة لغة رسمية بين الأقوام كما كانت اللغة الفرنساوية لعهد قريب . وكانت تكتب بالطليانية المعاهدات والمقاولات المنعقدة بين الفرنج والمسلمين الذين يسميهم الاوروبيون سارازين. فمنشأ القاپتيولاسيون هو الرخص التي تساهل الاسلام باعطائها للفرنج في الشرق . ثم عقدت معاهدات ومقاولات لتأييد تلك الرخص التي منحت بصورة خصوصية وحالة مستثناة بسبب اختلاف الأخلاق والدين والعوائد والقوانين . ولما فتحت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ التمس الجنويون من الفاتح ابقاهم على ما كانوا عليه . فأقرهم على الامتيازات التي كانت لهم قبلاً وجدد امتيازات

الوندیکیین في السنة التالية وعقد معهم معاهدة ولم يزل متنها محفوظاً والمادة ١٦ منها ترخص للوندیکیین بارسال سفير للاستانة حسب المعتاد القديم ووعد السلطان بمساعدة باشا الروم ايلي له وحافظ الوندیکیون على الاستقلال الملي الذي كان لهم عند قياصرة الروم حكام الاستانة السابقين .

اما فرنسا فانها لما احست بضرورة المحافظة على الامتيازات الممنوحة لكثير من مدنها التجارية من جانب ممالك المسلمين قبل الفتح العثماني سعت كثيراً باستحصال امتيازات لرعاياها مثل التي احسن بها السلطان على الوندیکیين وربطها بمعاهدات وأخذ جميع الممالك النصرانية عدا ممالك شارلكان تحت حمايتها التجارية . فأرسل فرنسوا الأول (السيرجان دولافوره) بسفارة مخصوصة الى السلطان سليمان القانوني وعقد بين الدولتين معاهدة مؤرخة في شباط سنة ١٥٣٥ . ولكن متن هذه المعاهدة المحرر باللسان التركي فقد من باريس ولابد وان يكون لها قيود في الباب العالي . ولم يزل لها ترجمة بالفرنساوية واخرى بالطليانية وهما محفوظتان في نظارة الخارجية الفرنساوية . والمادة الثالثة من هذه المعاهدة (ترخص لملك فرنسا بارسال سفير الى الاستانة ليسمع ويحكم جميع الدعاوي الجزائية والحقوقية المتحدثة بين تبعة الملك الفرنساوي . ويسمح للبابا ولملك انكلترا وايقوسيا (اسقوچيا) الدخول في هذه المعاهدة لغاية ثمانية اشهر من تاريخها) . والمادة الرابعة منها (تسمح لبقية الاوروبيين من انكليز وقاتالان وراغوزين وسيسيليين وبورتغاليين ان يتاجروا تحت الراية الفرنساوية) وبهذه المادة تقرر حق حماية فرنسا لبقية الاوروبيين في الشرق . والمادة الخامسة منها تقول « للفرنساويين حرية ممارسة عبادتهم ويمكنهم محافظة الأماكن المقدسة بواسطة رهابين الكاثوليك . »

وكان الفرنساويون المقيمون في الشرق اذا حدث بينهم اختلاف راجعوا

المحاكم الشرعية وارتضوا بحكمها وعدالتها . ولم تك تعترض دولة فرنسا على ذلك. انما تعللت بأن رعاياها لايفهمون لسان البلاد والذين يفهمونه منهم لايعرفون قوانين المحاكم الشرعية واصطلاحاتها ولذا يعجزون عن المحافظة على حقوقهم والمدافعة عنها والتمست حضور ترجمان القونصلاتو معهم اثناء المحاكمة . فوجد هذا الطلب في الصورة الظاهرة طبيعياً وبسيطاً ولو حظ أن ترفيق اصحاب الدعاوي الذين لايفهمون اللسان التركي بترجمان من جانب القونصلاتو العائدين اليها لتفهم مرامهم و الترخيص لهم بالمدافعة عن انفسهم والمحافظة على حقوقهم بواسطة ذلك الترجمان معقول وسالم من كل محذور ولم يظهر ادنى مضرة من الترخيص لهم بذلك ولا من عقد معاهدة بهذا الخصوص من جانب دولة معظمة بلغت بسطوتها وجلالها درجة الكمال وفاقت بقوتها على الاقران والامثال الا وهي الدولة العثمانية ولم يفكر سياسيوها مع دهائهم بعواقب الامور لعدم خبرتهم بالعلوم السياسية والحقوق الدولية .

ثم أن دولة اخرى من دول اوروبا التمست من الباب العالي أن ترى الدعاوي المتحدثة بين رعاياها في القونصلاتو التابعين لها لاختلاف عاداتهم واخلاقهم وتعاملهم عن اهل البلاد الموجودين فيها . فوجد ذلك الالتماس في محله اولا لتخليص المحاكم العثمانية من تصديعات الاجانب وثانياً لتسهيل اشغالهم . وعلى هذا المنوال صارت دول اوروبا واحدة بعد واحدة تلتمس من الباب العالي ومن ملوك الدولة العثمانية الانعام على رعاياها بحق من الحقوق المدنية وامتياز عن بقية الرعية وتبين لذلك اسبابا ضرورية ومعقولة وتأتي بامثال واقعة حق استحصلت على مجموع تلك الامتيازات والمعاهدات التي يقال لها قاپيتولاسيون . ثم ذكر في احدى المعاهدات مادة عمومية تشمل جميع الدول وهي « كل دولة تستفيد من الامتيازات التي ستعطى بموجب معاهدة لغيرها من الدول زيادة عن الامتيازات التي نالتها

بمعاهدتها مع الدولة العلية . »

بناءً على هذه المادة كلما اكتسبت دولة من الدول امتيازا من الباب العالي عم هذا الامتياز جميع اولئك الدول . وصاروا يجددون هذه المعاهدات كلما حصل تبدل في السلطنة حتى سنة ١٧٤٠ حيث عقد الماركي دو فيلنيف (١) سفير فرنسا معاهدة وامضاها السلطان محمود الاول ولويس الخامس عشر وذكر في المادة ٨٥ منها بانه يصير مراعاة احكامها من جانب من يتولى السلطنة من اخلاف السلطان محمود. وكان تجار الافرنج ايام صولة الانكشارية قليلين جدا في الممالك العثمانية ولا يدخلونها ويتجارون فيها الا برخصة مخصوصة ولم تبح الاقامة لهم اكثر من سنة اما التجار العثمانيون فكانوا اندر من النادر في بلاد الافرنج ولذا لم تر الدولة العلية لزوماً لطلب مقابلة مثلية على المساعدات والرخص والامتيازات التي احسنت بها على الاوروبيين بصورة موقته كما انها لم تر فائدة من الاستناد على احكام عهدية لاعتمادها على قوتها وشوكتها في ذاك العصر . فلذلك لم تراع اصول المقابلة بالمثل الواجب اتخاذها في المعاهدات المنعقدة مع دول اوروبا. وبعد أن كانت تلك العهود السلطانية في الاصل عبارة عن رخص وانعامات اتخذت دول اوروبا تلك الانعامات التي احسن بها عليهم عطفاً وفضلاً بدون مقابلة مثلية لها في بلادهم في حكم حقوق متحتمة لايجوز تغييرها ولا الرجوع عنها. ثم تبدل الحال وصار الاوروبيون يردون الى الممالك المحروسة بكثرة ويستوطنون فيها ويعدون من اهلها واختلط بهم كثير من الاهالي فصار الصنف الممتاز المحمي من جانب الاجانب يعد بالالوف والوف الالوف فتعسر ادارة البلاد على مديريها . (٢)

وفي سنة ١٦٠٤ ادرج في القاپيتولاسيون حقوق تصرف الرهبان بالاماكن المقدسة التي بقيت بيدهم . ثم صار الرهبان يردون من سائر انحاء اوروبا ويستوطنون

---

(١) Comte Plélo Villeneuve [١٦٩٩ - ١٧٣٤]

(٢) جودت جلد ١ ص ٢١٧

في الثغور التجارية المفتوحة لتجارة الفرنساويين ويشكلون جمعيات جديدة وفرنسا تساعدهم وتتوسط لهم مع الحكومة المحلية وتلتمس تحويل صلاحية فك المشاكل الروحية والتجارية الى اصلها . وبناءً على التماس لويس الرابع عشر ادخل جميع اولئك المبشرين في «القاپيتولاسيون» المجددة سنة ١٦٧٣ وكتب السلطان ما يلي (« لتبق رهبان اللاتين وبقية زهادهم الذين هم من تبعة فرنسا في جميع اماكن مملكتنا كما كانوا اولا ويجرون بها وظائفهم . »)

ومن ذلك العهد اخذ الرهبان الفرنساويون يوسعون دائرة نفوذهم في الشرق شيئاً فشيئاً وانضم اليهم رهبان ايتاليا واسبانيا ودخلوا تحت حماية الدولة الفرنساوية وتأسس في الشرق عدة رهبنات وجمعيات دينية مختلفة .

وكان الرهبان ماهرون عارفون احوال البلاد والعباد يدارون الناس ويكلمونهم بألسنتهم وعلى قدر عقولهم ويتملقون الباشاوات واصحاب الوجاهة ويوادونهم ويهادونهم حتى صارت تلك الهدايا والعطايا مرتبات مقطوعة يتوارثها الابن عن ابيه والأخ عن اخيه ويتفرغ عنها مستحقها لغيره وكانوا يفتحون المدارس ويؤسسون المستشفيات ويطببون ويعطون الأدوية للفقراء مجاناً ويطعمون الطعام ويفرقون الصدقات الى ان صار جميع الأهالي والحكومة يبشون في وجوههم ويسمحون لهم بالاستملاك وبناء الكنائس والأديرة والمنازل والمخازن بعد ان كانوا ينفرون منهم ويتباعدون عنهم فاستأنسوا حينئذٍ وصاروا ينتشرون في داخل البلاد شيئاً فشيئاً ويمدون نفوذهم ويكثرون من امتلاك الأملاك ويستحصلون الماذونيات والامتيازات لكنائسهم واديرتهم واوقافهم وعماراتهم ويحتمون بقناصل فرنسا وسفرائها وكانت معاملات الرهبان والمبشرين — كما قاله احد الوزراء الفرنساويين — تشغل سفير فرنسا لدى الباب العالي اكثر من بقية المصالح المكلف بها . لأن الاسلام وان سمح للمكتابيين بالاقامة في جانبه بأرغد

العيش واهنأه الا ان الطوائف المسيحية لم تستطع القيام بجانب بعضها بعضاً بدون تشاجر وتضارب . واشتدت المزاحمة بين فرق النصارى واقضى بهم التحاسد والتباغض الى المقاتلة واراقة الدماء بسبب الاشراف على القبر المقدس وصار المسلمون يصلحون بينهم ويدخلون كنائسهم بعائمهم وجبهم لتمنعهم عن اهراق الدماء عبثاً وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق . ولا احد يقدر على تصور هذا المنظر العجيب الا اذا دخل كنيسة القبر المقدس في بيت المقدس يوم سبت النور وشاهد فيها اقوام الشرق والغرب بألبستهم الوطنية وطقوسهم الروحانية يهيجون ويموجون ويرغون ويزبدون ويهمهمون ويدمدمون ويكشرون لبعضهم عن ناب العداوة والبغضاء . فاذا انتقل الزائر الى المسجد الأقصى وجد خلف جداره اليهود على اختلاف اجناسهم ولغاتهم وملابسهم يبكون ويصرخون ويلطمون على وجوههم وصدورهم ووجد في داخل المسجد المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات يهللون ويكبرون ويرفعون الرايات ويدقون الطبول والصنوج ويأكلون في بطونهم النار والحديد والثعابين ويضربون اجسادهم بالسيوف والآلات الجارحة والرجال يذكرون والنساء يزلغطن والصبيان يصرخون وجميعهم عن ذكر الحق والحقيقة غافلون .

والعقل يعجب والشرائع كلها

خبر يقلد لم يقسه قائس

متمجسون ومسلمون ومعشر

متنصرون وهائدون رسائس

وبيوت نيران تزار تعبداً

ومساجد معمورة وكنائس

والصابئون يعظمون كواكبا

وطباع كل في الشرور حبائس

اللهم اهدنا صراطك المستقيم وارشدنا الى الدين القويم دين آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام اجمعين .

وحيث ان احباءنا الرهبان كانوا يشتغلون بالعلم والمعارف ويسيحون في الارض اختبروا البلاد واهلها وكانوا يطلعون قناصل فرنسا وسفراءها على جميع احوال الشرق ويعرفونهم منابع ثروته وكيفية ادخال التجارة الأجنبية اليه واصناف البضائع الرائجة فيه . فالرهبان انفسهم كانوا في جميع البلدان يتقدمون التجار فيفتحون لهم الطرق التجارية وينيرون امامهم المسالك .

التجارة الفرنساوية في الشرق

وفي ذلك العصر كان جل اهتمام الدول الأوروبية مصروفاً نحو التحري على مخرج (سوق) ينفقون فيه محصولاتهم الصناعية ومخزن يستخرجون منه مايلزمهم من المواد الأولية ولذا كانوا يستعمرون الأقاليم البعيدة ويصرفون عليها المصاريف الباهظة . فأدركت فرنسا ان الممالك المحروسة تفي لها بهاتين الغايتين كرماً وتفضلاً بدون ان تكلفها نفقات الاستعمار فتمسكت بأذيالها وأخذت تصدر اليها محصولاتها الصناعية وتورد منها مايلزم لمعاملها من المواد الأولية على مبادىء اقتصادية لايتصور انفع ولا احسن منها لمصالح فرنسا . فظفرت بأمنيتها لأنه بعد ان كانت سلاطين آل عثمان قافلة ابواب ثغورها في وجه جميع الأجانب فتحها السلطان سليمان احساناً وتفضلاً منه للتجار الفرنساويين وعادت تجارة الشرق محصورة بيد الدولة الفرنساوية وبموجب المعاهدة المنعقدة مع فرنسا سنة ١٦٧٣ نزلت الدولة العلية رسم الدخول « الكمرك » الى ثلاثة في المائة فانتشرت البضائع الفرنساوية في جميع

انحاء المملكة العثمانية لأن « القاپتيولاسيون » لم تشمل في ذلك الوقت الا الونديكيين والانكليز والهولانديين . فاحس وزير فرنسا الشهير قوبر بفوائد هذه التجارة ومحسناتها لانه كان يهتم اذ ذاك في تحسين معامل المملكة وترقية صنائعها ولاسيما ما كان منها في الأيالات الجنوبية فاجتهد في ترويج مصنوعات فرنسا وانفاقها في السوق التي اباحها لهم سلاطين آل عثمان بلاعوض واعلن للجميع ان نجاح الصنائع في بلادهم لايتم الا بتوسيع نطاق التجارة في الشرق .

وفي ابتداء القرن الثامن عشر كان عدد كبير من المعامل والمصانع الفرنساوية لاتعمل الا المواد التي لها رواج فى الشرق ولا تصنع غير المصنوعات التي تستهلك فيه ولذا كانت لاتشتغل الا بالتصدير واهم تلك المواد والمصنوعات الجوخ المشهور عندنا بالجوخ الفرنساوي وهو معروف بالطراوة وحسن النسج وجودة الصوف وكان يحاك في ناربون وطولوز ثم يجعل أثوابا « مقاطع » ويوضع في الصناديق ويرسل في السفن فتقطع به البحر المتوسط وتورده على الاستانة العلية وازمير وبيروت والاسكندرية ومن تلك الثغور ينفذ الى داخل المملكة فيفصل ويخيط ويلبسه الباشاوات والبكاوات والافندية والاغوات الذين حكموا البلاد وجمعوا ثروتها في خزائنهم وفي ذلك التاريخ بلغ مقدار الصادرات الفرنساوية الى المملكة العثمانيه فقط خمسة عشر مليون ليرا سنويا على التقريب . ثم بلغت الزيادة في نصف قرن اربعة امثالها وتضاعفت الثروة في مرسيليا الى عشرة امثالها . ولما كانت تجار بقية الدول الاوروبية لايتيسر لهم التجارة في الشرق الا تحت الراية الفرنساوية كانت الامة الفرنساوية هي الواسطة بين اوروبا التجارية وبين العالم الاسلامي .

اما الفوائد التي استحصلت عليها فرنسا من الاتفاق مع العثمانيين فيمكن تلخيصها في المواد الاتية وهي :

اولاً . — استخدامها العساكر الانكشارية لكسر تفوذ اعدائها وصرف نظارهم عنها . فكانت فرنسا في القرن السادس عشر كلما احست بهجوم عليها واستعداد لحرب معها اوحدوث تعدٍ ما من جانب احدى الدول هرعت (الى السيد الكبير الذي لايزال حصانه مسرجا وسيفه على جانبه معلقا اناء الليل واطراف النهار وسلطته على اعدائها واستعملته في منافعها) .

ثانياً . — ازدياد اعتبارها في اعين العالم النصراني بحمايتها الرهبان الكاثوليك في الممالك العثمانية والأراضي المقدسة والباعث لها على هذه الحماية في بادىء الأمر هو تبرير نفسها امام الرأي العام في اوروبا من زلة احتمائها بالخلافة الاسلامية على عهد فرنسوا الأول .

ثالثاً . — ازدياد سعادة حالها بتوسيع تجارتها مع البلاد الاسلامية حيث فتح سلاطين آل عثمان ابواب ثغورهم كرماً ومنة لمراكب الفرنساويين ومن احتمى بهم ودخل تحت رايتهم من بقية الاوروبيين وقدموا الفرنساويين على من سواهم وخفضوا لهم رسم الدخول «الكمرك» الى ثلاثة في المايةفانتشرت البضائع الفرنساوية في جميع انحاء المملكة العثمانية وتزايدت قيمة الصادرات الى اربعة امثالها فبلغ الصادر الى الشرق فقط مايزيد على خمسة عشر مليون من الليرات . ورفلت مرسيليا في حلل السعادة والعمران واصبح الشرق مستعمرة الى فرنسا بدون ان تتكبد نفقات الاستعمار . وصارت تصدر اليه مايصنع عندها من المنسوجات وبقية المصنوعات وتورد منه ما يقتضى لمعاملها ومصانعها من المواد الأولية كالقطن والصوف والحرير وغير ذلك فكانت تأخذ القنطار بدرهم وتعطي الدرهم بدينار .

رابعاً . — ارتفاع شأنها عند تجار اوروبا بأجمعهم لتوسطها بين العالم الاسلامي والعالم المسيحي وشفاعتها لدى خلفاء المسلمين بجميع الاوروبيين . فكانت فرنسا « مأمور تشريفات » عند الدولة العلية تقدم اليها بقية الدول وتوصيها عليهم

وترجوها قبولهم ورعايتهم وكانت مراكب الدول الاخرى ترفع الرايات الفرنساوية عند دخولها الثغور العثمانية وفقا للمادة الرابعة من معاهدة شباط سنة ١٥٣٥ .

الاتفاق التجاري بين انكلترا وروسيا

اما انكلترا فكانت بمعزل في ذلك التاريخ عن المسئلة الشرقية وليس لها كبير منفعة بجميع ما يتعلق بامور الدولة العلية لعدم تعيين منافعها في الشرق لانها لم تكن آنئذٍ مستولية على مستعمرات فرنسا في الهند الشرقية وبعدها لم تتوطد شوكتها في البلاد الهندية ولم تهددها دولة الروس بالاستيلاء على تلك المملكة الغنية . اما الروس فلعدم خروجهم في ذلك الوقت الى البحر الأسود فانهم لم يضايقوا سير السفن في البحر المتوسط ولم تستطع اساطيلهم الوصول اليه الا بواسطة بحر المانش ولا الدخول فيه الا من جبل طارق ولذا كانت الانكليز بمأمن من غوائل البحرية الروسية وتشك في قوتها ونجاحها . وكانت انكلترا اول من عامل الروس من الدول الغربية . اما العلائق التجارية بين الدولتين فكانت قديمة جداً وفي القرن الثامن عشر انتظمت واتسعت توسعاً زائداً بعد بناء بطرس برج . وفي سنة ١٧٣٣ عقدت معاهدة تجارية بين الدولتين ثم تجددت تلك المعاهدة سنه ١٧٦٦ . فزادت بهاتين المعاهدتين اهمية التجارة الانكليزية في الممالك الروسية ومنحها القيصر امتيازاً بمعافاتها من الرسوم والتكاليف فوجدت انكلترا في بلاد الروس مخرجاً واسعاً لتجارتها ومخزناً لاستحصال المواد الأولية اللازمة لها وكانت حالة تجارة الانكليز مع الروس تشبه حالة تجارة الفرنساويين مع العثمانيين . نعم وان كان هذا الاتفاق التجاري لم يؤد الى اتفاق سياسي ولكن لما تغلغل الاسطول الروسي الذي اوجدته كاترينه الثانية بين جزائر الأرخبيل الرومي كانت قباطين الانكليز ادلاءً لبحرية الروس الذين لم يتدربوا بعد على سلوك البحار .

وكانت سياسة هولاندا تابعة لسياسة انكلترا . اما اسبانيا فلم يكن لها اهمية لهبوطها في ذاك الزمان .

اجمال ما ذكر في المقدمة

فيؤخذ مما تقدم ان أساس المسئلة الشرقية هو منافسة الأقوام الأسيوية للأقوام الأوروبية وطمع كل منهما في الاستيلاء على الآخر . فأنتجت المنافسة كر الأقوام الاولى وفر الثانية من امامها ثم فر الاولى وكر الثانية عليها وبالعكس فهما كالبحرين الزاخرين ان مد هذا جزر ذاك وان مد ذاك جزر هذا .

وذلك ان العرب هجموا اولاً على غرب اوروبا وبلغوا فيها مدينة پواتية . فقاومهم شارل مارتيل وقومه وصدوهم عن التقدم نحو الشمال فأقاموا في اوروبا وعمروها وامتزجوا باقليمها ثمانية قرون وكانت جزيرة سيسيليا كاسبانيا دار اسلام كما كان الاسلام منتشراً في ايتاليا وساردينيا وقورسيقه وبروڤانس وهو القسم الجنوبي من فرنسا . ثم اخرجهم الصليبيون من اوروبا وهاجموا الشرق واستولوا على القدس ثم لم يلبثوا قرنا حتى ارجعهم صلاح الدين الى ديارهم . وكر الترك على شرق اوروبا ووصلوا ابواب مدينة فينا ثم قفلوا عنها راجعين لمقاومة الاتفاق الصليبي لهم واتخذ اصحاب الخروج والدعوة الدين مروجا لتلك المنافسة وآلة يسوقون بها الاقوام للحرب والضرب وتسخير البلاد وسبي العباد ولكن الطمع كان يقودهم للحرب اكثر من التعصب والايمان .

والدين قد خس حتى صار اشرفه
كلبا لكلاب اوبازاً لبازينا

يحكى ان الدون سانش بن الفونس ملك قشتاله لما نصبه البابا رئيساً على الحرب الصليبية الثانية ورسمه ملكا على مصر بمشهد جم غفير تهلل وجه الحاضرين

بالبشير فسأل الدون ترجمانه وكان يجهل اللاتينية عن سبب ضجيج القوم فاجابه من فرحهم برسمه ملكا على مصر فقال لترجمانه وانت لاتكن ناكراً لهذا الجميل بل قم واعلن الاب المقدس خليفة على بغداد . فهذا يدلنا على ان ذهاب الصليبيين الى سوريا وفلسطين لم يكن لتخليص قبر السيد المسيح كما يتوهم اصحاب العقول الساذجة بل لانتزاع البلاد وتقلد اماراتها .

اما مسئلتنا الحاضرة الشرقية فوجدت منذ وجد الترك في اوروبا ومنذ دخل الاسلام اوروبا الشرقية . وادعت روسيا بحل تلك المسئلة حلا موافقا لمنافعها الخصوصية منذ دخلت في مصاف الدول الغربية والدافع لها على ذلك هو اولا احتياجها للتقرب من البحر الاسود ثم الابيض والخروج من العزلة التي مكثت مدة طويلة فيها . ثانياً ادعاؤها بميراث قياصرة الروم الذين اخذت عنهم الدين والمدنية وانتسابها للأخذ بثارهم من ذبحي القسطنطينية . ولبلوغ مأربها في الشرق قضت السياسة عليها بالاتفاق مع دولة اوستريا كما قضت عليها بالاتفاق مع دولة بروسيا لتنضم الى مصاف الدول الغربية . وعقد القيصر مع امبراطور اوستريا سنة ١٧٢٦ معاهدة دفاعية تجاه اوروبا وهجومية تجاه الممالك المحروسة . فتخوف من مطامعها دولتا « لهستان » بولونيا والسويد وترامتا على الأعتاب السلطانية وكانت منافعهما مشابهة لمنافع الدولة العثمانية فاتفقت هذه الدول الثلاث على كبح جماح عدوتهن الطامحة الى املاكهن وتقربت اليهن دولة فرنسا لتراقب من جهة سياسة اوستريا ولتحافظ من جهة اخرى على امتيازاتها الدينية والتجارية في الشرق .

اما انكلترا فلم تهتم بالسياسة الشرقية قبل استيلائها على الهند بل كانت حينئذ منهمكة بنشر تجارتها في الممالك الروسية وعقدت مع القيصر معاهدتين تجاريتين في سنتي ١٧٣٣ و ١٧٦٦ في النصف الأول من القرن الثامن عشر

كانت دول اوروبا مجتمعة على الصورة الآتية :

١ . — السويد و « لهستان » بولونيا ملتجئتان الى الدولة العلية وجميعهن متفقات على كبح جماح عدوتهن الكبرى وهي روسيا وتعضدهن السياسة الفرنساوية .

٢ . — الاتفاق السياسي الثنى المعقود بين اوستريا وروسيا ضد الدولة العلية خاصة والاتفاق المعقود بين روسيا وبروسيا ضد « لهستان » بولونيا .

٣ . — الاتحاد التجاري المنعقد بين روسيا وانكلترا .

تمت المقدمة

فهرست الكتاب

صحيفة

ا ترجمة المؤلف

و قول مراسل باريسي في اول محاضرة عربية القيت في باريس .

مقدمة المؤلف :

١ تعريف المسئلة الشرقية.

٤ اساس المسئلة الشرقية .

٩ ميدان المسئلة الشرقية .

١١ دخول الاتراك في الدولة الاسلامية .

١٢ ظهور الدولة العثمانية .

١٨ معاهدة واسفار (Vasvar).

١٨ محاصرة فينا ورجوع الاسلام عن اوروبا .

٢٠ معاهدة قارلوفجه (Karlowitz)

٢١ معاهدة بساروڤجه (Passarowitz)

٢٢ نقطة الانفصال بين زمني الادبار والاقبال .

٢٣ تشكل روسيا وسلالة روريك .

٢٣ اعتناق الروس للمذهب الارثوذكسي .

٢٦ انقسام المملكة الروسية وظهور دولة القپچاق الاسلامية .

٢٧ ظهور امارة موسكو .

٢٩ ايوان الكبير وانقراض دولة القپچاق .

٢٩ زواج ايوان الكبير بصوفيه باليؤلوغ .

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-2102/fragment/page=00000098

صفحة

٣٠ لقب القيصر وشعار النسر البيزانطي .

٣١ خلفاء ايوان .

٣٣ كيفية انتقال الملك الى سلالة رومانوف .

٣٤ سلالة رومانوف .

٣٥ بطرس الاكبر .

٣٦ المحرك لطمع روسيا .

٣٨ اخذ قلعة ازاق [Azov] .

٤٠ اشتراك السويد وبولونيا والدولة العلية في المنافع .

٤١ موانع اتفاق روسيا مع فرنسا .

٤٣ اتفاق روسيا واوستريا .

٤٤ اتفاق روسيا وبروسيا .

٤٤ العلائق الودية بين فرنسا والبلاد الاسلامية .

٤٤ الفتح العمري .

٤٥ هارون الرشيد وشارلمان .

٤٨ الفتح الصلاحي .

٥٠ الدولة العثمانية وفرنسا .

٧١ التجارة الفرنساوية في الشرق .

٧٤ الاتفاق التجاري بين انكلترا وروسيا .

٧٥ اجمال ماذكر في المقدمة .

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-2102/fragment/page=00000099

اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
ط	١٥	ولا حرباً صليبية	ولا حرب صليبية
ل	٢٠		
٣	١١	لابقاء من ذلك	لابقاء ذلك
٧	«١» هامش	تعتبز	تعبير
«	٣ «	١٣٧	١١٣٧
٨	١١	(١)	(٢)
١٧	١٥	وكذلك في السطر الاخير من الهامش	
١٨	٥	فتياتاً	فتيات
٢٠	١٣	المنصبان	المنصبين
٢١	٧	ملتزمتان	ملتزمتي
٢٥	٤	موال	موالي
٢٩	١١	القاطنين	القاطنون
٣٧	٢٢	لن تزل	لن تزال
٤٩	١٦	بنيت	بنية
٥٢	١٨	الواقع	واقع
٦٧	٦	لتفيهم	لتفهيم
«	١٩	حق	حتى

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-2102/fragment/page=00000101

03 SA 7268

ULB Halle
000 189 537
3/1

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-2102/fragment/page=00000103

مطبعة مدرسة الايتام الاسلامية

في السرايا القديمة بالقدس الشريف

مستعدة لطبع الكتب والجرائد والمجلات وجميع ما يلزم التجار
والمعاهد والافراد من المطبوعات باللغة العربية واللغات الافرنجيه

بسرعة واتقان واسعار متهاودة للغاية

ويتبعها دائرة لتجليد الكتب والدفاتر وغير ذلك تامة الادوات
على احدث طراز

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-2102/fragment/page=00000104